

محمد العياشى

وجهاده ضد الأسبان والبرتغال

١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م

للدكتور شوقي عطا الله الجمل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية — جامعة محمد الخامس . الرباط

أولاً — التعرف بالعياشى والظروف التى ظهر فيها :

العياشى — أو كما يعرف به صاحب زهدة الحادى — هو الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أبى العباس أحمد الزيانى ، وقد اشتهر بلقب العياشى . لكنه لا ينتمى إلى القبيلة البربرية التى يقال لها (إيت عياش) . وقد كان إماماً عالماً فقيهاً مشاركاً فى عدة فنون من العلوم . وكان رحمه الله — بحسب الدعوة ، مادعى الله فى شىء ألا يجيب له — شوهده ذلك منه مراراً ، وله كرامات كثيرة ، وأهله من قبيلة بنى مالك بن زغبة من العرب الهلالية^(١) .

ولا نعرف الكثير عن نشأة العياشى ولا عن تاريخ ميلاده لكن المعروف أنه قضى فترة شبابه فى (سلا) ، وتعلم فيها على يد فقهاءها ، وكان من تلاميذ الشيخ (أبى محمد سيد عبد الله بن حسون السلامى) ومن أتباعه المقربين إليه ، وقد اشتهر بالورع والتقوى والتصوف وذاع صيته ،

ويقال إن شيخه السالف الذكر نفسه كان يذيع في المجالس محاسنه ، وبطيل في الثناء عليه ويدعو له دائماً قائلاً : اللهم جاز سيدى محمد العياشى أفضل الجزاءات - وكافته عنا أحسن المكافآت ... واجعل مكافأتك له انكشاف الحجب عن قلبه حتى يكون أقرب الله منه ... اللهم لا تحرمه توجهه إليك وانقطاعه لحديثك ، (٢) .

كذلك وصفه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ابن أحمد العياشى في شرحه الصغير للمرشد المعين بأنه : الولي الصالح ، العالم العامل ، قطب الزمان ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الم رابط في الثغور مدة عمره ، ذى الكرامات الشهيرة العديدة ، والفتوحات العظيمة الحميدة ، من لا شبه له في عصره - ولا فيما قرب منه ولا نظير ولا معين له على نصرة الإسلام ... (٣) .

كذلك أورد الأفرانى - ما قاله فيه الكثيرون من العلماء - ثم ختم بقوله : إن ثناء الناس عليه نظماً ، ونثراً كثير جداً يطول تتبعه (٤) .

وكان ظهور العياشى في أواخر الدولة السعدية ، في النصف الأول من القرن السابع عشر (أوائل العقد الثانى من القرن الحادى عشر للهجرة) . وهذا يوضح أهمية هذه الشخصية ، والدور الذى لعبته على مسرح التاريخ بحيث تستحق أن نلقى عليها الأضواء ، فقد نهض لمداغة المستعمرين الطامعين في المغرب وثغوره في وقت كانت السلطات الحاكمة في المغرب من الضعف ، والانقسام بحيث أصبحت عاجزة عن أن تنفرغ للجهاد الخارجى ، بل بالعكس وصل الأمر إلى التفريط في الثغور بل ومهادنة المستعمر والارتقاء في أحضانه ليؤيد أحد المتنازعين على الساحة (٥) .

فقد كان انتهاء عصر السلطان أحمد المنصور (١٠١٢ هـ) - الذى اشترك في موقعة وادى المخازن الكبرى ، ثم أعقب ذلك بتوجيه جيشه صوب بلاد السودان حيث أحرز الجيش المغربى انتصارات ضخمة - إيذاناً بانتهاء

عظمة الدولة السعودية . ونذيراً بفترة انحلال وانقسام وضعف أثارت من جديد أطماع الدول الاستعمارية في النفوذ المغربية ، فطمعت فيها أسبانيا والبرتغال ، بل ودخلت انجلترا في هذا الصراع .

بعد وفاة المنصور بادر أهل فارس إلى مبايعة (زيدان بن المنصور) بمجرد ما انتهوا من دفن الملك الراحل — وكان (زيدان) عادلاً على إقليم (تادلا) استصحبه أبوه معه إلى (فاس) ثم استخلفه عليها قبل وفاته . وبلغ خبر الوفاة والبيعة إلى مراکش نارت نائرة أهلها ورأوا في تصرف الفاسيين واستبدادهم بالامر دونهم استخفافاً بشأنهم فبايعوا (أبا فارس ابن المنصور) استناداً إلى أنه كان الخليفة الرسمي لوالده بحاضرة مملكة ، وبدلاً من أن يسمى ذو المسكاة والنفوذ في تلافى الانشقاق وحل المشكل — تسرع علماء فاس فأفتوا بوجوب قتال المرابطين عملاً بحديث :

إذا بويع الخليفة فاقتلوا الآخر منها .

وهكذا قامت الحرب بين جيش المملوكين الأخوين والتقى أتباعهما على ضفة نهر (أم الربيع) على أن (أبا فارس) لم يحضر القتال بنفسه فقد أناب عنه أخاه الثالث الشيخ (المأمون) بعد إخراجه من السجن فقد كان سجيناً في (مكناس) بسبب قيامه بالثورة على أبيه فقبض عليه وسجنه في (٩٩٧ هـ) ، بل اشترك في هذه المعارك ولدا (المأمون) (زهودة) و (عبد الله) . وظل الأخوة الثلاثة (زيدان ، وأبو فارس ، والمأمون) يتنازعون الملك مدة طويلة دون أن يتم الأمر لواحد منهم ، فعمت الاضطرابات أرجاء البلاد ، وعانى أهل فاس ، وأهل مراکش الكثير من الظلم فقد تعرضوا للتهب والسلب والسجن ، والتقتيل ، فكان كلما استولى أحد المتنافسين على إحدى المدن أعمل السيف في رقاب أهلها وسلب أموالهم وسجن نساءهم وأطفالهم ، ثم إذا خرج وجاء أخوه عمل مثله .

وانتهى الأمر بأن خنق عبد الله بن المأمون عمه (أبا فارس) سنة (١٠١٨هـ) واستقل هو (بفاس) ، وكانت بينه وبين أبيه (المأمون) معارك — انتهت بقتل الإبن سنة (١٠٢٢هـ) — وهكذا دوليك ، ويذهب الطائع بين رجلى العاصى — كما نقول — صاحب تاريخ الدولة السعدية . وهو مؤلف مجهول — حتى انتهى الأمر لزيدان بن المنصور^(٦) .

انتهى الأمر (لزيدان بن أحمد المنصور) وإن لم تكن له السيطرة إلا على (مراكش) فلما مات سنة (١٠٣٦هـ) خلفه ابنه (عبد الملك أبو مروان) ، وتكررت المأساة فقد نار عليه أخواه الوليد ، وأحمد ، واستقل أحمد بفاس ثم قتل ، كما اقتحم الوليد مراكش سنة (١٠٤٠) وقتل أخاه عبد الملك وبويع بامم (أبي يزيد الوليد بن زيدان) ولم يكن فى الواقع إلا أمير (مراكش) وحدها — لأن البلاد المغربية أصبحت فى ذلك العهد بلاداً متفرقة الكلمة مقطعة الأوصال ، وثوراتها مستمرة ، وليس بها رأس واحدة بل فى كل بلد رأس أورؤوس . وقد شبهها البعض بالآندلس أيام ملوك الطوائف^(٧) .

ولم يقتصر الأمر على الاضطرابات الداخلية — فقد أضادت الظروف الخارجية إلى عوامل الاضطراب هذه .

فى الآندلس كانت أوضاع المسلمين والظروف المحيطة بهم تمثل عاملاً آخر له أثره البالغ على المغرب ، فبعد سقوط أشبيلية سنة (١٠٤٨) اقتصر ملك الأمراء المسلمين فى أسبانيا على مملكة غرناطة حيث بقيت فترة فى أيدى (بني نصر) ، لكن سقطت غرناطة فى النهاية فى عام (٨٩٧هـ) — (١٤٩٢م) فى يد (فرديناند الخامس) وهاجر كثير من المسلمين من الآندلس قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها ، ولجأ عدد كبير منهم إلى المغرب ، أما الذين بقوا من المسلمين فى أسبانيا بعد سقوط غرناطة فقد عوملوا فى المبدأ

معاملة لا بأس بها - وسمح لهم بالإبقاء على ممتلكاتهم ، لكن لم يلبث
 الأسباب أن ضيقوا عليهم الخناق ، واضطروا كثيرين منهم لاهتناق
 المسيحية ، وساموا الباقين سوء العذاب ، ووصلت موجة الاضطهاد إلى
 ذروتها في عهد فيليب الثالث (Philippe III) الذي وصل إلى العرش عام
 (١٥٩٨) وبتجريض الراهب المتعصب زيمنس (Ximenes) أصدر في (١٦٠٩)
 قراراً بترحيل جميع المتبقين من عرب الأندلس إلى المغرب . وقد استقر
 بعض اللاجئين من الأندلس في (تطوان) بينما استقر البعض الآخر في
 (الرباط) و (سلا) ، وحصنوا قصبة (سلا) وبنوا فيها الدور والقصور .
 وفي مستهل القرن السابع عشر ازدحمت (الرباط) و (سلا) بالذات -
 إثر الهجرة الأندلسية الكبرى بهؤلاء الموريسكيين (moriscos) ودخلوا
 في طاعة (زيدان بن المنصور) ملك مراکش فأقر عليهم القائد (فاضل
 الزعروى الانصارى) ^(٨) .

وبحسب مؤرخ معاصر لهذه الأحداث هو (أبو العباس أحمد بن محمد
 المقرئ التلمساني) عن نهاية مأساة الموريسكيين بالأندلس فيقول :

« كان لإخراج النصارى أيامهم - بهذا العصر القريب عام سبعة عشر
 وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف آخر بتلمسان من وهران ،
 وجمهورهم خرج بتونس ، فقساط عليهم الأعراب ، ومن لا يخشى الله
 (تعالى) في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل
 من هذه المضرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم
 لهذا العهد عمروا قراها الحالية وبلادها ، وكذلك (بتطوان) و (سلا)
 و (فيجة) الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً
 جراراً وسكنوا (سلا) كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور
 الآن ، وحصنوا قلعة (سلا) وبنوا بها القصور والحمامات والدور . وهم
 الآن بهذا الحال ^(٩) .

وبالإضافة إلى أحداث الأندلس هذه - كان هناك عامل آخر خارجي - انعكست آثاره على المغرب في هذه الفترة - وهو نشاط الأتراك العثمانيين على حدود المغرب الشرقية ، واتجاه أنظارهم بالتالى لبلاد المغرب ، فى عام (١٥١٨) أعلن خير الدين - الذى لقب بلقب بارباروس (أى ذى اللحية الشقر) ولاءه للسلطان العثمانى ، وتبعية البلاد الخاضعة له للإمبراطورية العثمانية ، ثم أعقب ذلك نجاح العثمانيين فى القضاء على الأميرة الحفصية فى تونس إذ تمكن (سنان باشا) من اقتحام (الباسطيون)^(١) فى (٢٥ جمادى الأولى سنة ٩٨١ - ٣ سبتمبر ١٥٧٣) وأعلن إلحاق القطر التونسى بالولايات العثمانية - فكان طبيعياً أن يمد الأتراك أبصارهم إلى المغرب الأقصى . وقد مرت العلاقات التركية المغربية فى مراحل متعددة ليس هذا مجال التعرض لها لأنها تحتاج لدراسة خاصة - لكن نشير إلى العلاقات فى الفترة التى تخص موضوعنا . فقد أعقب معركة وادى المخازن (٥٩٨٦ - ١٥٧٨ م) صفاء الجو بين الدولتين ، لكن عادت العلاقات إلى التوتر حتى أن السلطان (مراد الثانى العثمانى) أعد قوة بحرية كبرى على رأسها وزير البحر (علوج) للابحار إلى الجزائر ومنها إلى المغرب ، لكن أحمد المنصور أرسل وفداً سياسياً على رأس الكاتب (أبو العباس أحمد بن يحيى الهزالى) مع هدية عظيمة للسلطان مراد ، ونجح الوفد فى النهاية فى تصفية الجو ، وفى افتتاح السلطان (مراد العثمانى) بأن يرسل للمغرب وفداً للتفاوض بدلاً من أسطول للحرب . فصارت العلاقات بين الدولتين على أتم ما يكون من الصفاء والوداد وحسن التفاهم .

لكن الانحلال الذى أصاب الدولة السعدية بعد المنصور السعدى - أطمع الأتراك فى المغرب فسمعوا لتحقيق أحلامهم السابقة واتصلوا بالقبائل المغربية الشرقية ، كما فتحو أبواب البلاد الخاضعة لسلطانهم لتحتضن

الخارجين عن السلطة والطامعين في الحكم ، فأصبحت هذه المناطق على حدود المغرب بؤرة تجمع الخارجين عن السلطات الحاكمة .

وهكذا لعبت مناطق مثل (الجزائر) و (وهران) و (تلمسان) دوراً هاماً في السياسة المغربية في هذه الفترة .

وبالمثل فيما يتعلق بالأطباع الأجنبية في الشغور المغربية في هذه الفترة فقد كان مركز البرتغال قد أخذ يضعف ، فسقط حصن سناكروز (أكادير) في يد السلطان (أبي عبد الله الشيخ) في ١٢ مارس (١٥٤١) ، واضطروا بعد ذلك مباشرة إلى إخلاء حصونهم في (أسفى) و (أزموور) ، ثم أخلوا (أصيلا) في عام (١٥٤٩) ، و (القصر الصغير) بعد ذلك مباشرة في (١٥٥٠) — فلم يبق في أيدي البرتغال سوى (طنججة) و (سبتة) في الشمال و (الجديدة) في الجنوب ، وكانت هذه الموانئ تعاني ضغطاً مستمراً من المغاربة بقصد تحريرها والدليل على ما كانت تعاني منه البرتغال من الضعف والعجز أن كتّيبين من البرتغال نادوا بأن الظروف تستدعي أن تقوم البرتغال وأسبانيا بعمل مشترك يصون مصالحهما في المغرب — وقد كتب في هذا المعنى (Giovanni Battista Gesia) في ٢٣ أبريل ١٥٧٦ فذكر أن الموقف الصعب في المغرب يجعل من الواجب أن يتخذ كل من فيليب الثاني (Philippe II) ، و د . سبستيان (D. Sebastean) عملاً موحداً لوضع أيديهما على المناطق الهامة بهذه البلاد وتقسيمها بينها (١) .

لكن بعد هذا النداء بعامين تقريباً جاءت هزيمة (الملك سبستيان) ومقتله في موقعة وادي المخازن في (جمادى الثاني ٩٨٦ — ٤ أغسطس ١٥٧٨) حاسمة فيما يتعلق بنفوذ البرتغال في المغرب .

لكن التطور الذي آلت إليه الأمور في المغرب بعد وفاة أحمد المنصور

— كما أسلفنا أطعمت الدول الاستعمارية الأخرى الطامعة في الثغور المغربية
لتمارس نشاطها في هذا المجال ، وكانت أسبانيا في مقدمة هذه الدول خاصة
إن كارثة وادى المخازن بالنسبة للبرتغال لم تقتصر على موت الملك — لكنها
أدت إلى ضم البرتغال إلى التاج الأسباني — إذ لم يكن لسبستيان وريث
للعرش من أسرته ، فانتقلت بذلك إلى يد فيليب الثاني بضربة من ضربات
الحظ غير المتوقعة — الأملاك البرتغالية الغنية على جانبي أفريقيا —
وبعث هذا الاتحاد الذي تم في (١٥٨٠) — في نفس فيليب ملك أسبانيا
الآمل في تضخم قوته^(١٢) .

وقد استطاعت أسبانيا فعلا في ذلك الوقت أن تضرب إحدى ضرباتها
فبسطت نفوذها في عام (١٦١٤) على (المعمورة) و (المهدية) — وهكذا
أصبحت تبسط نفوذها على (المعمورة) و (العرائش) و (طنجة) و (سبتة)
و (مليلية) ، لكن كانت هناك قوة بحرية أخرى تتحدى النفوذ الأسباني
في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، وأصبحت لها مصالح قوية في المغرب
وثغوره — هي قوة إنجلترا ، وقد استطاعت قوات إنجلترا البحرية في عام
(١٥٨٨) تدمير الأسطول الأسباني (الارمادا) — لكن تدمير الأسطول
وإن كان قد أضعف مركز الأسبان لكن المنافسة بين أسبانيا وإنجلترا
استمرت بعد ذلك ولم تنه إلا في عام (١٦٠٤)^(١٣) .

أما عن الدور الذي لعبته إنجلترا في المغرب في هذه الفترة فسندشير فيما
بعد إلى ما يتعلق منه بالعلاقات مع (العياشي) — إذ أن دور إنجلترا كاملا
يتطلب دراسة أعمق لأهمية شعبه ولذا نرجو أن نفرده بحثاً خاصاً به .

هكذا وجدت على مسرح الأحداث في هذه الفترة من تاريخ المغرب —
ثلاث قوات رئيسية متنازعة هم الأتراك العثمانيين ، والأسبان ، والانجليز ،
وكان على السعديين أن يواجهوا هذه القوى وغيرها من الدول التي كانت
تطمع في الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي بموقعها الممتاز

على مشارف الطرق البحرية والبرية المؤدية لداخل القارة الإفريقية التي كانت أضواء الأوربيين قد أخذت تسلط بقوة عليها ، وكذا المؤدية للشرق بغلته المطلوبة في الأسواق الأوربية . هذا في وقت كانت الدولة السعدية تعاني من الانقسام والتطاحن بين أفراد البيت السعدي نفسه بالإضافة إلى الثورات وعوامل الاضطراب الداخلية .

وفي هذا الجو الصاخب المضطرب ظهر (العياشي) ليحمل لواء الجهاد فكان عليه أن يواجه كل هذه التيارات — وسنرى إلى أي حد نجح في مواجهة كل قوة منها ، وإلى أي حد وفق .

ثانيا : بداية حركة العياشي وموقف السلطات الحاكمة في المغرب منه :

تردد المواجه التي تصدت للأحداث المرتبطة بالعياشي — قصة رحيله إلى (أزموور) لحراسة الثغور المغربية من العدو ولتكون مركزاً للجهاد مفتتحاً بذلك صفحة جهاده الطويل — فتذكر أن بعض مشايخ القبائل أهدوا إلى شيخه بسلا (الشيخ أبي محمد سعيد عبد الله بن حسون السلامي) يوماً فرساً ، فأمر الشيخ بإمراج الفرس — ثم اتجه إلى العياشي ، فأمره أن يمتطي الفرس ويرتحل به إلى أزموور قائلاً له : « ارتحل عني إلى أزموور ، وانزل على أولاد أبي عزيز ، وجاهد في سبيل الله ، ولا بد لك من الرجوع إلى هذه البلاد — وسيكون لك فيها شأن عظيم ... » وودعه الشيخ ووضع يده على رأسه وبكى ودعاه بالخير والنصر^(١٤) .

فقصد العياشي إلى (أزموور) ونزل حيث تبين له شيخه ، وشرع فيما أمره به من حراسة الثغور من العدو الكافر بتلك النواحي ، ولم يزل من يومه مثابراً على الجهاد حتى شاع في البلاد ما هو عليه من التضيق على العدو .

— ولم تحدد المراجع التاريخ الذي غادر فيه مسقط رأسه ، لكن

يفهم من مسلسل الأحداث التالية أن ذلك حوالى (١٦٠٤) . وقد بلغ خبر تضيقه على المستعمرين ، وانتصاره على جوشهم في وقائع متعددة إلى بلاط السعديين بمراكش ، فكافؤوه بعمالة (أزموور) ليظل شوكة في

جنب البرتغاليين الموجودين في (الجديدة) يقض مضاجعهم ويبعث في قلوبهم الرعب والهلع .

ويشير صاحب نزهة الحادى — إلى أن هذا الأمر تم في عام (١٠٢٠ هـ — ١٦١١ م) ، فقد توفى في هذا العام قائد حصن (أزموور) فسأل السلطان (زيدان بن أحمد الذهبى) مستشاريه والمقربين إليه عن يليق بتولية هذا الشغل والقـيام بوظيفته ، فأشاروا جميعاً عليه (بالعياشى) ، فكتب له بالتولية — فنهض العياشى بأعباء ما حمل به من ذلك على خير وجه وبذل مجهوداً فيه وكانت له مدة عمالته هذه لأزموور — مع أهل (البريجة) وقائع عظيمة ضيق عليهم فيها أشد الضيق حتى أنه منعهم من الحرث والرعى والسقاية في مرافقهم ، وكان يبعث للسلطان زيدان بمراكش بخمس الغنائم التى يغنمها ، وكذا الأمرى من الأعداء — فزادت شهرته وذاع صيته (١٥) .

وكان طبيعياً أن يتضايق البرتغاليون كثيراً من حركات العياشى هذه ، ومن مرابطته الدائمة قرب المنطقة التى يحتلونها ، ولما لم ينجحوا أن يوقعوا به في ميدان الحرب عمدوا إلى المكر والخديعة — فاشترؤا ضمائر حاشية السلطان زيدان بالهدايا والتحف الثمينة ليتخلصوا من هذه الشخصية القوية .

ونجحت المؤامرة الدنيئة ، فقد أغروا صدر السلطان عليه وأظهروا له أنه من لا تؤمن غائلته ، وأنه يخشى منه على ملكه ، وأنه لو ترك في هذه المنطقة أكثر من ذلك ، فإن ساعده سيشتد أكثر ، وسيكون كغيره من خرجوا على سلطانه .

وكان (زيدان بن أحمد) قد أمضى خمساً وعشرين سنة ملكاً لم تخل سنة منها من حرب مع خارج على ملكه ، ووصل به الأمر في بعض الأحيان إلى أن ترك مقر ملكه (بمراكش) إلى (تلمسان) بالمغرب الشرقى يطلب

العون من الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون الجزائر — وهكذا كان من السهل التأثير على السلطان السعدي ، وإثارة الشكوك حول نوايا (العباشي) عاملة في أزموور ، فجهر زيدان سرية قوية من أربع مائة فارس وجهها إلى مدينة (أزموور) للقبض على العامل وقتله ، لكن قائد السرية (محمد السنوسي) كان رجلاً ذكياً — علم بجمالية الأمر ، فبعث إلى المجاهد (العباشي) خفية أن ينجو بنفسه ، وأفسح له المجال للخروج إلى (سلا) مسقط رأسه وكان ذلك في عام (١٠٢٣هـ - ١٦١٤م) — أي أنه ظل عاملاً على أزموور من قبل السلطان (زيدان بن أحمد المنصور) حوالي ثلاث سنوات .

ريذكر صاحب نزهة الحادي — إن الله ألقى في قلب القائد المذكور الشفقة عليه فبعث إليه خفية يقول : (إنج بنفسك) ، فخرج العباشي في أربعين رجلاً من خاصته قاصداً مدينة (سلا) — فلما بلغ القائد السنوسي المذكور مدينة (أزموور) لم يجد له خبراً ، فأظهر العناية بالبحث عنه ، والتفتيش عليه ، وعاقب على إفلاته شريعة من أهل الفحص زاعماً أن ذلك مما يجب عليه من المحافظة على أوامر السلطان^(١٧) .

هذا على أن المراجع تشير إلى الاضطرابات التي كانت تسود البلاد في ذلك الوقت ، فقد كان الأسبان — كما أشرنا من قبل — قد احتلوا في هذا التاريخ ثغر المعمورة^(١٨) .

وترتب على ذلك أن أصبحوا يعمثون فساداً في المنطقة كلها ، فاستغاث أهل (سلا) بالسلطان زيدان ، وبعثوا جماعة منهم إليه بمراكش يطالبون النجدة والمعونة لمداومة العدو المغتصب ، فلم يجدوه بمراكش لأمر اقتضى غيبته عنها ، فلما عاد صار يمدح بالهجرة ويهلمهم وهو يبرأ بهم ، ففهم أهل سلا — كما يقول صاحب تاريخ الدولة السعدية — إنه قبض حق البلاد ، كما فعل أخوه الشيخ المأمون (بالعرانش) ، فأنصرفوا راجدين إلى بلادهم — من غير أن ينظروا منه إذناً أو مشورة — وأخذوا في العدة والحزم والعسة على الأسرار بأنفسهم^(١٩) .

على أن تراخى السلطان عن الوقوف في وجه المحتلين — شجعهم فتجادوا في سلب قوافل الأهالي ، فاشتد الخوف وكثر الهرج . وقد صادفت هذه الأحداث عودة (العباشي) إلى سلا ، وكان قد ذاع صيته عند الناس لما قام به ضد الأعداء أثناء إقامته في (أزمور) . وكانت عودته بعد تسع سنين من مغادرته مسقط رأسه ، وكان شيخه (سيدي عبد الله بن حسون) قد توفي ، فلزم ضريحه مدة كان في أثناءها يقدِّم عليه أهل سلا ، يسلمون عليه ويستنجدون به على أعداء البلاد الذين أخذوا يعيشون في الأرض فساداً . فطلب العباشي من المستجيرين به أن يعدوا العدة للجهاد وكان عددهم قد بلغ أربعمائة نفر خرج بهم العباشي إلى (المعمورة) حيث وقعت بينه وبين الأسبان معركة قتل فيها منهم ما ينيف على أربعائة رجل واستشهد من أتباع العباشي مائة وسبعين رجلاً ، ومن ذلك الوقت أصبح الأسبان يلزمون حصونهم ويقبضون وراء أسوار المدن التي يحتلونها ولا يجرؤون على مغادرتها^(١٩) .

على أن هذه الانتصارات ، والتفاف الناس حول العباشي بسلا ، وزيادة أتباعه يوماً بعد يوم — أزعج (السلطان زيدان) بما أكش فبعث إلى قائد قسبة سلا (الزعروري) يأمره بأن يقبض على العباشي أو يغاله — لكن شيوخ الأندلسيين أنكروا ذلك ولم يوافقوا عليه وتطوعت جماعة منهم لملازمته ليل نهار وحمايته^(٢٠) .

على أن لجوء (القائد الزعروري) إلى تجهيز أعداد من الأندلسيين وإرسالهم لميادين القتال المختلفة ، أو لإخماد الفتن تلبية لطلبات (السلطان زيدان) المتتالية — جعلت هذا القائد مكروهاً من الأندلسيين فلفقوا له التهم ووشوا به لدى السلطان فأمر بالقبض عليه ، وأرسل مكانه مملوكاً من ممالكه يدعى (عجيباً) — لكن المورييسكيين ثاروا على هذا المملوك وقتلوه ، وأعلنوا خلع طاعة (السلطان زيدان) وأدى هذا لزيادة عوامل الفوضى في (سلا) فكثرت للتهب والفساد وقطع الطرقات ، فهرع الناس إلى العباشي طالبين

منه أن يمسك بدفة الأمور ويردع أهل البغى والفسق — فقد كان هو الشخصية الوحيدة التي تستطيع أن تقوم بهذا الأمر في ذلك الوقت وأخبروه أنهم يلتزمون بطاعته وأن يكونوا يداً واحدة وأنهم سيقفون في وجه أية قبيلة تخرج عن طاعته وأوامره ، وكتب شيوخهم بذلك وبايعوه من (تامسنا) إلى (تازى) فقبل أن يقوم بهذا الأمر ، وشمر عن ساعد الجدة والاجتهاد وأظهر الأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأشرقت في الجو السلاوى أنواره كما يقول معاصروه (٢١) .

على أن العلاقات بين العياشى و (الموريسكيين) لم تستمر على هذه الوتيرة فقد فسد الجو بينه وبينهم ، وانتهى الأمر بقتلهم وسنشير إلى ذلك ولاسيما ونتائجه فيما بعد . على أننا نشير إلى أن البلاط السعدى بمراكش لجأ لوسيلة أخرى للإيقاع بالعياشى ، فقد أوصى جماعة من الفقهاء لينشروا بين الناس أن جهادهم مع العياشى باطل ، فالجهاد لا يجوز إلا مع الإمام وبإذن منه وكان الهدف من ذلك أن ينفض الناس من حوله .

لكن تصدى فريق آخر من الفقهاء للرد على هذا الادعاء ، فقد أصدر هدد من العلماء منهم الأئمة (عيسى عبد الواحد ، وإبراهيم الجلالى ، ومحمد العربى الفاسى) — فتاوى تؤكد أن قتال العدو لا يتوقف على وجود إمام ، فتعاون الناس على الجهاد ورد الظلم ، ووجود المصلحة في ذلك أمر واضح لا غبار عليه (٢٢) .

على أن هذا السلاح سلاح التشكيك من بعض المتفقهين في تصرفات العياشى كان من أقوى الأسلحة التي استخدمها خصومه ضده وقد احتضن البلاط السعدى عدداً من هؤلاء المتفقهين لهذا الغرض ، فذكر منهم على الخصوص الشيخ (أبو مهدي عيسى السكتانى) الذي لقب بقاضى الجماعة بمراكش — فقد أصدر فتوى اتهم فيها العياشى بأنه طامع في الملك ، وانتز

فرصة حروبه ضد بعض القبائل الخارجة ، وكذا موقفه من مهاجري
الاندلس — فندد بمقاتلته لظولاء المسلمين وعدم اكترائه بدمائهم (٢٣) .

على أن العياشي لم يأبه لذلك واستمر فيما نصب نفسه له من مقاومة العدو
والمستعمر لشغور بلاده بالإضافة إلى مقاومة وجوه الاعوجاج الداخلي التي
يصل إليه خبرها في المجتمع المغربي — فقد تعددت رسائله إلى المدن والقبائل
في هذا الشأن .

نذكر منه رسالته التي أذاعها على الناس في يوم الجمعة التاسع من محرم
عام (١٠٤١) ينهى الناس فيها عن استعمال (دخان العشب — المسمى طاية)
— ومنها رسائله إلى أهل فاس في الثالث من محرم (١٠٤١) يدعوهم للتعاقد
والتعاون ونبذ الخلافات، ومثلها رسائله إلى أهل مكناس يحضهم على احترام
المحارم ، وجمع الأعيان إلى غير ذلك من الشؤون العامة والرسالة مؤرخة
٩ جمادى الثاني (١٠٤١ هـ) ، ورسالة إلى أهل تطوان بخصوص قاضيه الذي
لا يحكم بالعدل وبما تقضى به الشريعة . . وتاريخها الثالث عشر من رجب
١٠٤١ (٢٤) وهكذا لم يكن العياشي — رجل حرب وقاتل تقدم الصفوف في
جهاده ضد العدو الأجنبي فحسب بل لأنه كان مصلحاً إجتماعياً يدعو الناس
لسلوك الطريق السوي كما يدعو الدين والشرع وكانت له في نفوس الناس
مكانة ، ولذا كان المرشد الذي يسترشدون به متى غمض عليهم أمر أو اختلط
شأن وكانت كلمته مسموعة ونصيحته نافذة — وكان هذا سبب حقد أصحاب
السلطان عليه وخشيته من التناف الناس حوله ، فنصبوا له المكياد ومحاولين
بمختلف الوسائل الإيقاع به هذا وقد حاول الوليد بن زيدان
(١٠٤٠ — ١٠٤٤) بعد مبايعته بالملك أثر موت أخيه (أبي مروان عبد الملك)
أن يستميل العياشي إلى جانبه فأرسل له يستوضحه أحوال العدو بشغور
المغرب فرد عليه العياشي بخطاب مفصل عن أحوال المسلمين وأحوال العدو
بالشغور وتعددت الرسائل بينهما وقد أفاض العياشي في هذه الخطابات في

الحديث عن الجهاد وكيف أصبح واجبا على المسلمين بعد أن نزل الأعداء في الثغور وامتدت أيديهم إلى أواسط المعمور - وتمثل بخطاب من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص في هذا الشأن ... (٢٥) على كل إن دلت هذه المراسلات على شيء فهي تدل على أن العياشي كان أدري بأحوال الثغور من السلطان الحاكم نفسه، وأنه في الوقت الذي ركن السلاطين للإستسلام للأمر - فإن هذا المجاهد كان يستحث اليهم ويعتبر الجهاد ومنازلة العدو المحتمل للثغور أمراً واجباً على المسلمين .

ثالثاً : صور من كفاح العياشي ضد الأسبان والبرتغال :

تعددت الاشتباكات بين العياشي والمستعمرين الأسبان والبرتغال في (البريجة) وقرب (المعمورة) أو ما أطلق عليه (حلق وادي سبوا) ، وبالمواقع المسمى (عياشة) قرب جبل الحبيب ، وفي (العرائش) وفي غيرها من المناطق التي تركز فيها المستعمرون في الثغور المغربية - وكانت خسائر العدو في الأرواح والسلاح في هذه المواقع فادحة فقد اتبع العياشي في حربه هذه نظام العصابات، فهو يتنقل في حركاته الجهادية هذه بين المناطق المختلفة يترصد بالعدو ويأخذه على غره أو يرسل الجواسيس نن هم موضع ثقة المستعمرين فيغرر بهم - كما حدث في موقعة العرائش الثانية إذ أرسل رجلاً يدعى (ابن عبود) كان موضع ثقة الأسبان فأوهمهم أن المسلمين بوادي العرائش ويمكنهم أن يأخذوهم على غرة فلما خرجوا إلى هذا المكان لم يشعروا إلا وقد أحاط بهم العياشي ورجاله الذين كانوا يكمنون لهم فلم تنج منهم إلا قلة ضئيلة حتى أنهم انتقموا من (ابن عبود) هذا الذي كانوا قد استبقوه عندهم بتهذيبه وخلع أسفانه والتثيل بجثته .

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة لبعض الأحداث المرتبطة بهذه المواقع فيذكر عبد القاهر املاق - عن موقعة (البريجة) التي حدثت في حوالى

عام (١٠٢٠ هـ - ١٩١١ م) إنه كانت له مع النصارى أهل البريجثة وقائع
عظام - ضيق عليهم فيها أشد تضيق حتى منعهم من الحرث والرعاية
والسقاية (٢٦) .

وحين عجز المستعمرون في البريجثة - كما ذكرنا - عن الوقوف في وجهه
بقوة السلاح لجأوا إلى الإيقاع بينه وبين (السلطان زيدان) فبعث قائده
(السنوسى) للقبض عليه وقتله فسكان خروجه لسلاحيته اتخذوها مركزاً
للكفاحه .

ويشير صاحب نزهة الحادى - إلى غزوة المعمورة الأولى (حلق وادى سبوا)
في عام (١٠٢٣ هـ - ١٦١٤ م) فيذكر أن الأسباب التي أدت لهذه المعركة
تركز في كثرة تمديدات الأسبان المتمركزين في (حلق وادى سبوا) على
المواطنين - فقد قطعوا الطريق على المسلمين من أهل (سلا) وغيرهم، وأخذوا
يمدون نفوذهم على المناطق المحيطة بمحصونهم فأناروا الخوف والفزع في قلوب
الاهالى الذين استنجدوا بالسلطان (زيدان) في مراکش فلم ينجدهم - فلما
استقر العياشى بسلا خرج كما شرحنا في رحلته من أتباعه وكانت بينه وبين
الأسبان موقعة قرب المعمورة قتل فيها عدد كبير منهم واضطروا لأن ياتزموا
بمحصولهم لا يغادرونها (٢٧) .

وقد كانت المعمورة مسرحاً لمعارك أخرى بين العياشى والأسبان - وقد
تحدث صاحب نزهة الحادى عن الغزوة الثانية من غزوات الحلق من
المعمورة بوادى سبوا) - فيذكر كيف ضيق العياشى الحناق على الأسبان
بهذه المنطقة وحاصرهم وقتل عدداً كبيراً منهم وأمر عدداً آخر منهم (أحد
القباطنة العظام) لإقتدى به (رئيس أهل الخزان) الذى كان قد وقع أسيراً
فى أيديهم - ولم يذكر تاريخ هذه الغزوة (٢٨) .

وقد وقعت في منطقة المعمورة هذه في رمضان عام (١٠٤٠) هـ معركة
ثالثة حاسمة بين العياشي وأتباعه من جهة وبين الآسيان من جهة أخرى ، وقد
ذكر المؤرخون المعاصرون تفاصيل هذه الواقعة التي أطلق عليها بعضهم اسم
(غزوة الحلق الكبرى) فقد خرج العياشي في جماعة من أتباعه وأهل فاس
بلغ عددهم زهاء أربعة آلاف مقاتل إلى الموضوع الذي يقال له (عين السبع) ،
ومكثوا فيها ثلاثة أيام ، وكان المستعمرون قد أرسلوا لسلا مسلماً مرتداً
ليتجسس على أخبار المسلمين بها وأعطوه سلعاً يتظاهر ببيعها ، لكن اكتشف
المسلمون أمره وقتلوه ، ولما خرج جيش المستعمرين من المعمورة لم يشعروا
إلا وجند المسلمين قد أحاطت بهم فقتل أكثر من ٦٠٠ منهم وأسر المسلمون
٣٠٠ ، ولم ينج إلا القليل ، وقد غنم المسلمون بالإضافة إلى ذلك غنائم كبيرة
وقد تلقى (العياشي) أثر هذه المعارك عدة رسائل للنهضة بهذا النصر ، منها
رسالة من (محمد بن أبي بكر الدلائى) وقد رد عليه العياشي برسالة مؤثرة -
يشكو فيها من الشكوى من تفرق كلمة المسلمين - جاء فيها :

« سمعتم خبر هذه الغزوة ، وبلغكم من شرحها ما لم يحتاج إلى إعادة ،
ولا افتقر إلى زيادة - وقد قوى الأمل في الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة
مفتاحاً لفتحها (أى لفتح المدينة) فالمسلمون نازلون بمقر دارها ويرسلون
الصواعق على أسوارها ... حتى يأذن الله بيوارها ، وعودها ملك الإسلام ...
هذا الذى انعقدت عليه النية ... لكن يا سيدى أين المساعد والأمر لا ينهض
به الواحد ... والمسلمون - جبر الله صدعهم ويسر جمعهم - لا يتفق لهم
رأى ولا يثبت حق أن افتراق كلمتهم أضرم على الإسلام من اجتماع عدوه ،
وبعدى عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه ... وقد ذهب الإسلام ضياعاً
حتى أن الإسلام لو صور شيخاً جاءهم مستصرخاً يا إخوتى يامعشرى فى الشدة
والرغاء ... وهو يستغيث بهم ... لا يغاث ، ويستصرخ لا يكون لاستصرخه
انبعاث ... والمشتكى بذلك إلى الله وإلى أمثالكم أهل الله ... والامر بين

يشار إليه ، والنهار جلى من أن يستدل عليه ،^(٢٩) و (غزوة الحلقى الكبرى) هذه كانت غالباً كما يفهم من خطاب للعباشى كتبه للسلطان (الوليد بن زيدان) - قرب أواخر ومضان عام ١٠٤٠ .

ولم يقتصر نشاط العباشى على مناوشة العدو فى ثغر (المعمورة) فقد وقعت بينه وبين المحتلين معركة كبيرة فى الموضع المسمى (عباشة) قرب جبل الحبيب ، قتل فيها من الأعداء نحو ٨٨٠ هـ ، بينما حفظ الله المسلمين وأيدهم بمعونته - كما ذكر املاق - وأسبل عليهم ستر عنايته فلم يدمر (يقتل) منهم أحد ، واستبدوا بأثاث الكفار وأسلحتهم وأمتعتهم وأسلاهم^(٣١) .

وقد وقعت فى هـ - هذا المكان نفسه (عباشة) موقعة ثانية بين العباشى وأتباعه من جهة وبين المستعمرين وقتل فى هذه المعركة الثانية التى كانت فى عام ١٠٤٠ هـ نحو تسعمائة وأسر منهم مثل ذلك العدد واستشهد من المسلمين نحو العشرين رجلاً^(٣٠) .

وفى نفس العام (١٠٤٠) قام العباشى بحملة أخرى على جنود العدو المستقرين بشعر (العرائش) فكمن لهم بجيشه فى الغابات الجبلية بهذا الثغر ثم باغتهم وأحاطهم من كل جانب ، ومكن الله للعباشى وإن معه من المسلمين من رقابهم - وكما يقول صاحب نزعة الحادى - فطحنوهم طحن الحصيد . وأرسل العباشى بأخبار هـ - هذه المعركة إلى (السلطان الوليد بن زيدان) بمراكش فذكر له ... د إنه خرج من ثغر العرائش ما يزيد على الخمسمائة كافراً فما أفلت منهم أحد ولا رجع منهم راجع إلى ذلك البلد وهذا أشهرى المراد ... وسيأتى إن شاء الله بكاملها فى محله ،^(٣١) .

ولا شك فى أن تعدد المعارك بين العباشى والأعداء فى الثغور المغربية فى عام واحد وفى عدة أماكن يدل على قوته وعلى تصميمه على مواصلة الجهاد ضد العدو المغتصب لبلادها ، كما يوضح الخطة التى كان يتبعها وهى مهاجمة العدو

في مختلف الشغور والأماكن التي يحتلها حتى لا يهنا لهم مقام وهي ما يمكن أن نطلق عليه بلغة عصرنا حرب العصابات (Gorilla Wars)

وقد وقعت بينه وبين المستعمرين معركة أخرى (بالعايش) ، وكان قد وقع أثناء المعركة الأولى في أيدي المسلمين شخص كان موضع ثقة المستعمرين فلما لمس العياشي منه التوبة وآنس فيه الصدق أدخل سبيله فعاد إلى العرائش — فلما سأله المستعمرون عن الموضع الذي ينزل فيه العرب ضل بهم ، وترتب على ذلك أن وقعوا في السكين الذي كان قد نصبه لهم العياشي فتمكن منهم وقتل منهم أعداداً غفيرة (٢٢) .

هكذا كان العياشي — يخرج من معركة ضد المستعمرين ليعد جنده لمعركة جديدة فقد كان يعتبر الجهاد ضد العدو — كما ذكر في خطابه لسلطان مراکش — واجباً طالما العدو يحتل شبراً من أرض الوطن ، وكانت آخر غزواته ضد الأعداء بطانجه سنة (١٠٥١ هـ — ١٩٤١ م) .

ولا شك في أن ما مكنته من الاستمرار في الجهاد حتى نهاية حياته هو ما تميز به من قدرة على إلهاب حماس المسلمين وإثارة جيشهم ضد المستعمر الغاصب ، وأن ينظم صفوفهم في حرب مقدسة حتى أصبحت المنطقة من (الجديدة) إلى (طنجة) مسرحاً لعملياته ، وأصبح نفوذه في هذه المناطق قوياً ومعترفاً به من القبائل العربية ، بل كان أقوى من نفوذ السلطات الرسمية في (مراکش) ، وأصبح العدو يقبع داخل حصونه يخشى أن يخرج منها بعد أن كان يعربد في المنطقة كيفما شاء ، بل سنرى أن الدول الأجنبية الكبرى كالمجترات حاولت أن تخطب وده لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية وسلامة رعاياها في هذه المناطق .

وقد ذكر صاحب نزهة الحادي أن جملة من قتلهم من الكفار في غزواته

بلغ تسعة الآلاف وتسعمائة — وحتى إذا لم نأخذ بهذا الرقم لأنه من الصعب الوصول لعدد دقيق في مثل هذه الغزوات — لكن لا شك في أنه كبد العدو خسائر فادحة حتى أن الأعداء كما سنشير في نهاية هذا الحديث — أقاموا الأفراح عندما علموا بمقتله .

رابعاً : علاقة العياشي بالإنجلترا :

كانت لالإنجلترا منذ منتصف القرن السادس عشر ، وخلال القرن السابع عشر وثيقة هامة بالمغرب ، وتحتاج هذه العلاقات — كما اعتقد — أن تلقى عليها أضواء أكثر خاصة أن هناك عدداً من المصادر الرسمية البريطانية تخدم في هذا المجال — وهو ما أرجو أن أوفق في تناوله في بحث آخر — خاصة أن الاهتمام ركز على العلاقات الأسبانية والبرتغالية بالمغرب — رغم أن العلاقات الإنجليزية المغربية في هذه الفترة — كما يستفاد من المصادر البريطانية وغيرها وصلت إلى درجة هامة جداً (٣٣) .

وسنقتصر هنا على ما يخص موضوع البحث فقط ... أى على ما يتصل من هذه العلاقات بالمجاهد العياشى .

وقد أثرت علاقة بريطانيا بالمغرب في هذه الفترة عوامل نذكر منها :

١ — المنافسة التجارية بين إنجلترا وأسبانيا :

فقد تطورت هذه المنافسة في عهد الملكة إليزابيث (١٥٥٣ — ١٦٠٣) فأصبحت حرباً سافرة ، ورغم تلونها منذ البداية بشيء من صفة العداء الدينى المذهبى — فانها كانت في جوهرها منافسة اقتصادية — إذ أن حب المغامرة والمال والتجارة — أغرى الشعب الإنجليزي الذى اعتاد ركوب البحار أن يتحدى الاحتكار التجارى الذى فرضته أسبانيا ، فقد غدت إنجلترا

حينئذ أول قوة بحرية في العالم — وكان لديها أمهر صناع السفن ، وخبرة البحارة ، وكانت سفنها أصغر من سفن الأسبان حقاً ، ولكنها كانت أكثر منها قدرة على مسافة الرياح ، لما كانت أيسر قيادة . وبالإضافة إلى الأسطول الملكي الإنجليزي كان يوجد دائماً احتياطي كبير من أسطول القراصنة والأسطول التجاري يمكن الاعتماد عليه في التعاون مع أسطول الملكة في وقت الشدة (٣٤) .

وكانت أطماع البرتغال في المغرب قد انتهت إلى قيام الملك البرتغالي دون سبستان بمحاملته المشهورة على المغرب التي انتهت في جمادى الثانية سنة ٩٨٦ (١٤ أغسطس ١٥٧٨) بموقعة وادي المخازن التي كانت كارثة بالنسبة للبرتغال — فقد اندحر الجيش البرتغالي وقتل دون سبستان ، وانقرضت أمرته إذ لم يكن لدون سبستان ولي عهد فورثه خاله فيليب الثاني (Philipe II) واستولى على ممتلكاته ومن جملتها (سبته) التي وقعت منذ ذلك العهد تحت النفوذ الأسباني — وهكذا انتقلت إلى يد فيليب الثاني بضربة من ضربات القدر — البقاع الآتية شاطئ : الأطلنطي الممتاز ، ومناجم البرازيل والأمالك البرتغالية الغنية على جانبي إفريقيا ، والمحطات التجارية والقواعد العسكرية في جزائر البلهاء وجزائر الأزور ، وجزائر الهند الشرقية .

وقد استمرت هذه الوحدة بين أسبانيا والبرتغال — أو كما يعبر عنها فيشر — ذلك (الزواج) المتعب ، ستين عاماً (٣٥) .

وما يهنا في مجال حديثنا — أن هذه الوحدة أدت إلى تضخم قوة فيليب ملك أسبانيا — الأمر الذي نظرت إليه إنجلترا بعدم الرضى ، وكان من ردود فعل هذا الشعور تهنيذ إنجلترا لحركة التدمير بين البرتغاليين ضد الأسبان .

على أن هذه الدور من المنافسة بين الأسبان والإنجليز ينتهى بتعظيم قوة

أسبانيا البحرية إلا رماداً عام (١٥٨٨) وإن لم تكن هذه الهزيمة هي الفصل الأخير في الحرب الطويلة بين البلدين ، فقد استمرت هذه الحرب بعد وفاة فيليب الثاني واليزابيث ولم تنته إلا في عام ١٦٠٤ . لكن ما يهمنا هنا أن تحطم هذه القوة الضخمة التي كانت تعلق أسبانيا عليها الآمال - ترتب عليه من ناحية الأسبان أن نظروا إليه ، وإلى سلسلة الهزائم التي منوها بها نظرة صليبية بغضه - فقد عزوا كل هذه الهزائم لغضب الله ، وانعكست محاولاتهم لاسترضاء الله - على المسلمين في أسبانيا ، فأصدر (فيليب الثالث) قراره بطرد البقية الباقية من المسلمين البالغ عددهم حوالي نصف مليون نسمة ، فاضطر عدد كبير من هؤلاء للهجرة إلى المغرب ليلاحقوا بأسلافهم في (تطوان) و (سلا) و (الرباط) وغيرها من بلاد المغرب - وكذا كرنا سيلايب هؤلاء دوراً حاسماً في أحداث الفترة التي نعالجها وكان لهم مع المجاهد العياشي بالذات موقف سنعالجه فيما بعد .

٢ - ظهور طائفة من المغامرين الإنجليز :

لقد تميز العصر اليزابيثي - باندماج عدد من الشباب البريطاني في أحلام الرحلات البحرية - وكانت تدفع هذه الفئة من الشباب عوامل وأهداف متعددة بعضها طيب كالرغبة في الاسهام في عملية الكشف الجغرافي ، وبعضها يرتبط بالرغبة في أخذ نصيب من ثمار هذه العمليات الكشفية والبحرية - فقد أسال لعاب الكثيرين عما كان يقال عن ثروات المناطق المكتشفة حديثاً سواء في أفريقيا أو في العالم الحديث ، ونادى هؤلاء بالاستعمار وبوضع الأيدي على الموانئ والمنافذ الهامة في البحار التجارية .

وقد ضغط هؤلاء بشدة على الحكومة البريطانية لتسهم في النشاط البحري والاستعماري في هذه المناطق أو على الأقل لتكفل الحماية لراعاياها وهم يزاولون نشاطهم مع ثغور المغرب وموانئه (كتطوان) و (سلا) و (الرباط) -

وبعض الوثائق والكتب التي نشرت عن رحلات السفن الانجليزية والبحارة والمغامرين البريطانيين لهذه الثغور تكشف لنا بعض الجوانب عن العلاقات الانجليزية المغربية في هذه الفترة (٣٦) .

٣ - فلروف المغرب الداخلية :

وقد أشرنا من قبل للأوضاع التي كان عليها المغرب في هذه الفترة التي ظهر فيها العياشي - وقد أدركت بريطانيا هذه الأوضاع على حقيقة أنها فرست سياستها في ضوء هذا الفهم لحقائق الأوضاع .

وقد تعاقب على عرش إنجلترا في هذه الفترة ثلاثة ملوك هم - الماسكة اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ، ثم الملك جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) ، ثم ابنه شارل الأول (١٦٢٥ - ١٦٤٩) . واتسعت سياسة إنجلترا خلال حكمهم جميعاً بالمرونة التي هي من مميزات السياسة الانجليزية . فكان هدفهم الاساسي هو تحقيق مصالح التجار الانجليز وضمان أكبر قدر ممكن لهم من الطمأنينة والأمان في رحلاتهم البحرية ، وفك أسر من قد يقع في أيدي القراصنة المغاربة والارتباط مع السلطات الشرعية أو نصف الشرعية أو غير الشرعية التي بيدها الأمر - بمعايدات لتحقيق هذه الأهداف (٣٧) .

والمتبع للعلاقات الانجليزية المغربية في هذه الفترة - يلمس أن الناحية الاقتصادية بالذات كانت هي العامل الاساسي المسيطر على هذه العلاقات ، ومنذ النصف الثاني للقرن السادس عشر كانت السفن التجارية الانجليزية قد بدأت تتجه للساحل المغربي على المحيط الأطلسي حيث الثغور المغربية التي كانت بمثابة المنافذ التجارية ليس للمغرب فحسب لكن أيضاً للمناطق الهامة بغرب القارة الإفريقية . وحين كان البرتغاليون أصحاب النفوذ في (أسني) و (سانتا كروز) وغيرها من الثغور المغربية على المحيط الأطلسي

— كانوا يحتكرون التجارة في هذه الموانئ ويضعون العراقل أمام السفن الانجليزية وغيرها من سفن الدول الأوروبية الأخرى .

وكانت لسلع مغربية مختلفة ، ولعل (السكر) في مقدمتها — أهمية خاصة عند بعض الدول الأوروبية ومنها إنجلترا^(٣٨) . وقد ارتفعت أصوات الاحتجاج في إنجلترا مطالبة بحرية الملاحة في الموانئ المغربية وحرية التعامل مع السواحل المغربية ، ودارت مفاوضات طويلة بين الحكومتين الانجليزية والبرتغالية بهذا الشأن .

وقد أتاح ضعف النفوذ البرتغالي في المغرب بعد (١٥٧٨) بالذات — فرصة ذهبية لم تتوان إنجلترا من اقتناصها . وتعتبر فترة حكم أحمد المنصور (١٥٧٨ — ١٦٠٣) فترة ازدهار العلاقات الانجليزية المغربية ، وكان المنصور على علاقات طيبة مع الملكة اليزابث ، وقد تبودلت الخطابات بين الطرفين على نطاق واسع ، ويفهم من الوثائق المتعلقة بهذا العصر أن الملكة اليزابث أرسلت بعض الفنيين المتخصصين في بناء السفن للسلطان السعدي ، وقد أصبح من المؤلف رؤية السفن التجارية الانجليزية في الموانئ المغربية وكانت هذه السفن تحمل معها من إنجلترا الأقمشة وغيرها من المواد المصنعة المطلوبة في المغرب وغيره من بلاد هذه المنطقة من غرب أفريقيا ، وتعود محملة بالسكر ، والجلود ، والصمغ ، والنور وملح البارود ، وتبر الذهب المجلوب من السودان — وكانت كميات كبيرة منه ترد للمغرب خاصة بعد غزو المولى أحمد المنصور للسودان في عام (١٥٩١) — هذا بالإضافة إلى القمح والذرة واللحوم^(٣٩) .

وكانت الجمارك المفروضة على البضائع الداخلة للموانئ المغربية ١٠ ٪ ، أما من قيمة الجمارك التي تؤخذ عن الصادرات فقد كانت قيمتها غير محددة تماماً ، وكان عدد من اليهود يقومون بدور الوساطة في تجارة الموارد والصادرات هذه .

وقد قدرت صادرات المغرب لبريطانيا في عام ١٥٧٤ / ١٥٧٥ بما قيمته ٢٧٦٢٩ جنيه أنجليزياً ، وقيمت الضرائب التي حصلت على هذه الصادرات مبلغ ١٤٣١ جنيه أنجليزى .

وقد تقدم التجار البريطانيون الذين يتعاملون مع المغرب بطلب لحكومتهم لتأسيس شركة تضم شملهم وتمنح ترخيصاً يفتح لها لوجدها الاتجار مع المغرب — ووافقت الحكومة الانجليزية على ذلك وتأسست هذه الشركة في عام (١٥٨٥) باسم (Barbary Company) ومنحت عقد الامتياز من الحكومة البريطانية يعطيها حق احتكار التجارة مع الثغور المغربية^(٤٠) .

على أن نشاط التجار الانجليز في الثغور المغربية — أثار مخاوف الدول المنافسة الأخرى خاصة البرتغال وقد كانت شكوى البرتغال بالذات من أن التجار الانجليز يبيعون الأسلحة للوطنيين المغاربة في الموانئ القريبة مقابل البضائع التي يستوردونها من المغرب ، وجرى محادثات طويلة في هذا الشأن بين الدولتين — وانتهت باتفاق على أن يقتصر نشاط التجار البريطانيين في موانئ المغرب على موانئ (العرايش) ، و (أسفى) ، و (سانت كروز) ولا يتجر التجار البريطانيون في الأسلحة مع المغاربة^(٤١) .

وفي عام (١٥٧٧) أرسلت الملكة إليزابيث سفيراً لها لدى ملك المغرب مولاي عبد الملك وكانت مهمة هذا السفير (Edmund Hogan) هي رعاية مصالح التجار الانجليز على وجه الخصوص ومحاولة الحصول على مزايا خاصة لهم^(٤٢) .

وبعد معركة وادي المخازن (١٥٧٨) ازداد الشعور في الدول الأوروبية البحرية بالذات بأهمية وجود علاقات لها مع المغرب الدولة التي أثبتت قوتها والتي تتحكم في ثغور هامة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي والتي تصدر غلات لها أهميتها لدى الأوروبيين .

ويبرز اهتمام الانجليز بالعلاقات الاقتصادية والسياسية مع المغرب في هذه الفترة في كتابات الانجليز ، فقد تعدد الكتاب الذين كتبوا يطالبون حكومتهم بزيادة علاقاتها مع المغرب - الدولة التي تقع في الطريق الجديد للهند (٤٣).

وقد دخل سكان الاراضي الواطئة في هذا الصراع — كما دخلت اسبانيا وهكذا أصبحت كل من اسبانيا ، وهولندا وانجلترا — تنافس في التقرب من (السلطان المنصور) وتحاول كسب وده ، وتفيد المراجع أن الهدايا أخذت تتلاحق من هذه الدول على الملك السعدي بل ومن غيرها من الدول التي كانت تقف من قبل من المغرب موقفاً عدائياً ، وازدحت مراكش بسفراء هذه الدول (٤٤) .

وقد أرادت ملكة بريطانيا أن تطمن على الوضع بالنسبة للتجار الانجليز بعد معركة وادي المخازن وفي وسط هذا الجو من التنافس الشديد على خطف ود الملك المغربي — وأرسلت خطاباً بهذا المعنى للملك السعدي أحمد المنصور — وجاء رد الملك المغربي في (٢٢ ربيع الثاني ٩٧٤هـ / ١٨ نوفمبر ١٥٧٩م) يؤكد أن التجار الانجليز الذين سيفقدون إلى موافى بلاده سيعاملون بنفس روح المودة السابقة وذكر أن من عادة المغاربة معاملة التجار من جميع الجنسيات بروح الود ، وأن التجار الانجليز بالذات لهم مكانة خاصة في المغرب (٤٥) .

وقد رأت شركة التجارة البريطانية التي أشرنا إلى أنها تأسست لرعاية مصالح التجار البريطانيين في الثغور المغربية — أن الأمر يستلزم وجود ممثل دائم للشركة في المغرب فاختر هنري روبرت (H. Robert) ممثلاً للشركة في المغرب ، ووصل إلى أسفى في ١٤ سبتمبر (١٥٨٥) ، وأرسل الشريف أحد رجاله لمرافقته إلى (مراكش) ورتب له سكناً فخماً في الحى اليهودى من المدينة — وقدم هذا المندوب البريطانى للملك المغربي خطاباً خاصاً من الملكة اليزابيث بخصوص مهمته (٤٦) .

على أن ظروف الاضطراب التي أحاطت بالمغرب بعد وفاة السلطان المنصور ، والتي شرحتها فيما قبل - أدت إلى قلق إنجلترا خاصة بعد أن كثر تعرض التجار والرعايا الإنجليز لعمليات النهب والأسر بسبب الاضطرابات التي سادت في المغرب في ذلك الوقت ، وقد لجأت إنجلترا لتدعيم علاقاتها مع أصحاب النفوذ الحقيقيين في البلاد من مختلف الاتجاهات الذين كان يمكن أن يضمنوا لرعاياها الأمان والسلامة .

فكان طبيعياً أن تسعى إنجلترا للاتصال (بالعياشي) والارتباط معه بعد أن أصبح له النفوذ الكامل في ميناء (سلا) الهام وفي طول المنطقة الممتد منه إلى (تطوان) - ولذا أرسل شارل الأول (Charleso 1) - جون هاريسون (John Harrison) للمغرب^(٤٧) .

وقام (هاريسون) بالتفاوض مع العياشي وأصحاب النفوذ في (سلا) بهدف تأمين السفن الإنجليزية التي تأتي (لسلا) والكفالة الاطمئنان للتجار الإنجليز الذين يأتون للتعامل مع هذا الميناء المغربي الهام ، وكذلك لفلح أسر الرعايا الإنجليز الذين وقعوا في أيدي قرصنة سلا .

وقد نجح جون هاريسون (John Harrison) في عقد معاهدة مع العياشي تضمنت الضمانات المختلفة التي يريدها الإنجليز لرعاياهم وتجارتهم ووقعت هذه المعاهدة بين الطرفين في ٢٤ شعبان ١٠٣٦ (١٠ مايو ١٦٢٧)^(٤٨) .

وقد أرسل العياشي في رمضان ١٠٣٦ (١٠ مايو ١٦٣٧) خطاباً من الرباط إلى الملك شارل الأول يذكر له فيه أنه رافق فعلاً مندوبه جون هاريسون (John Harrison) من (تطوان) إلى (سلا) وأن الخدمة التي يطلبها ملك الإنجليز خدمة بسيطة - ويطلب أن يأمره الملك بكل ما يحتاجه ويذكر أنه مسرور لاتفاق السلام الذي عقد بين سكان قلعة (الرباط) ، ومندوب ملك إنجلترا لصالح رعايا الملك - ولتأكيد ما يربط بينهما من علاقات طيبة^(٤٩) .

وفي تقرير (جون هاريسون) الذي أرسله لـ إنجلترا يشير إلى الخدمات التي قدمها له العياشي ويذكر أن العياشي و (٤٠٠٠) من المغاربة تحت قيادته هاجموا المعمورة وأنهم طلبوا معاونة الأسطول الهولندي لمهاجمة الميناء من البحر، وذكر أن الأسبان أرسلوا مركبين بالعتاد والجنود للمعمورة لمعاونة حامية المدينة وإنهم تمكنوا فعلا من الحيلولة دون إسقوطها في يد قوات العياشي الذي اضطر لفك الحصار الذي كان قد فرضه على الميناء، ورجع إلى (سلا) ومعه المدافع التي كسبها من الأسبان، وذكر (هاريسون) في تقريره أن العياشي يرغب في معاونة شارل الأول (Charles 1) له في تخليص المعمورة من يد الأسبان لأهمية هذا الحصن، وترك هاريسون (سلا) على ظهر مركب هولندي في (٢٠ مايو ١٦٢٧) متوجهاً إلى إنجلترا^(٥٠).

وبعد وصول (هاريسون) إلى إنجلترا — أرسل شارل الأول خطاباً للعياشي مؤرخاً (١٢ أكتوبر ١٦٢٧) ليشكره على المساعدات التي قدمها لجون هاريسون في رحلته من (تطوان)، ولجهداته التي بذلها بعد ذلك لفك أمرى الإنجليز ولعقد معاهدة الصداقة معهم ويبدى ترحيبه بهذه الصداقة مع المجاهد المغربي ويؤكد في استمرار الاتصال والتراسل معه ومع القواد الآخرين نظرائه لتوطيد علاقات الود بين إنجلترا وبلاد المغرب^(٥١).

وفي نصريح للملك شارل الأول بعد ذلك في ٢٢ أكتوبر (١٦٢٨) ذكر الملك شارل الأول في أنه يأسف لما حدث من بعض البحارة الإنجليز ضد بعض الأهالي في الجزائر وتونس وتطوان وسلا — ويتعهد بتوقيع العقاب على مقترفي هذه الأخطاء حسب القوانين الإنجليزية^(٥٢).

ولا ندرى في الحقيقة ما هي هذه الأخطاء التي يعتذر الملك عنها ويأسف لوقوعها.

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين العياشي وأتباعه من جهة وبين شارل

الأول ، ففي خطاب مؤرخ ٢٠ مايو (١٦٣٠) يذكر العياشي أن اثنين من القادة بقصبة الرباط هما (عبد الله بن علي ، وأحمد بن علي البشير) نجحا في إخلاء طرف (١٩٥) من الأسرى الإنجليز ويشكر شارل الأول على المدافع والمواد الحربية التي أرسلها لهم ووعدهم بامدادهم بالمعدات الحربية الأخرى التي يحتاجون إليها ، ويذكر أنهم ليسوا حالياً في حاجة لأسلحة جديدة لأنهم يعملون لإصلاح القديم وأنهم إذا احتاجوا إلى شيء سيرسلون بشأنه ويؤكدون أن التجار الإنجليز الذين سيأتون لسلا سيعاملون كما لو كانوا في لندن (٥٣) .

وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة بين (العياشي) وأتباعه من جهة وبين الإنجليز من جهة أخرى ، وأتاح ذلك للتجار والرعايا البريطانيين فرصة مزاولة نشاطهم في (تطوان) و (سلا) وغيرهما من الموانئ التي في أيدى أتباع العياشي باطمئنان كامل (٥٤) .

وحين تسلط الموريسكيون على (تطوان) و (الرباط) وفي (قصبة سلا) وناصبوا العياشي العداء — كثرت الهجومات على السفن البريطانية وتعرضت مصالح إنجلترا ورعاياها في هذه الجهات للخطر ، ولذا اتجهت إنجلترا إلى أن تساند البحرية البريطانية في كفاحه ضد الموريسكيين من جهة وضد (الأتراك) وغيرهم من جهة أخرى (٥٥) .

وأصدر مجلس الوزراء البريطاني في ١٥ يناير (١٦٣٦) أمراً إلى البحرية البريطانية بمضاعفة جهودها والسهر لحماية الرعايا والتجار البريطانيين لما يتعرضون له من هجمات وأضرار سواء من السفن التابعة لتركيا أو من قرصان سلا (٥٥) .

وكلف القائد البحري البريطاني وليم رينسبورو (W. Rainsborough) بمهمة حماية السفن التجارية البريطانية التي تعمل في ثغور المحيط الأطلسي ،

ورعاية مصالح البريطانيين في الشغور المغربية والضغط على السلطات في الرباط
لفك الأسرى البريطانيين ولتحقيق ذلك أبحر لسلا بالسفن (أنتيلوب
(Antelope) ومارى (Mary) واتسمت بمحاولته مع حكام الرباط وسلا
بأسلوب يجمع بين المهادنة ومحاولة التفاهم لتحقيق الهدف وهو فك أسرى
من وقع في أيدي قراصنة سلا من الانجليز ، والضغط من ناحية أخرى
ملوحاً بقوة الاسطول البريطانى التى تستطيع محاصرة الميناء المغربى... لكن
ما يفهم من خطابه الذى أرسله لبريطانيا (غير مؤرخ) أن حاكم الرباط
لم يقبل تسليم الأسرى كما أن السفن التى تحت أمرته ثقيله الحركة ، ولذا
لا يستطيع تعقب سفن سلا الخفيفة الحركة والتى يقدر عددها ما بين ٤٠ ،
٥٠ سفينة وأنه لذلك يتربص وصول السفينتين الحربيّتين الصغيرتين اللتين
طلبهما ليتمكن فرض حصار كامل على ميناء سلا ومهاجمة المدينة وإخلاء
الأسرى وقد أرسل خطابه هذا مع سفينة أسبانية كانت قد أنزات بعض
التعويضات للأسبان في المعمورة^(٥٦) .

وقد عقدت في (مايو ١٦٢٧) معاهدة أخرى بين العياشى وبين شارل
الاول - سلطان بريطانيا وفرنسا وإيرلندا - كما تذكر المصادر - وقعها عن
العياشى (ابراهيم بن على المغربى الاندلسى) وعن شارل الاول القبطان
وليم رنسبور (William Rainsborough) من بنودها^(٥٧) :

١ - أن على كل طرف من الطرفين أن يستقبل بالترحاب أتباع الطرف
الآخر - إذا حلوا في أى ميناء من موانئه .

٢ - أن المارقين في سلا الذين تحاصروهم قوات (سيدى محمد العياشى)
يعتبرون أيضاً خارجين عن القانون في نظر بريطانيا .

٣ - على كل فريق أن يسرح الأسرى المتابعين للفريق الآخر حتى تيسر له
ذلك مجاناً من غير فداء فإذا بسر الله للمجاهد العياشى في الاستيلاء على

الشرذمة المارقة عن الدين — فانه يقوم بفك أسر من في أيديهم من الإنجليز
بجائناً .

٤ — تمتد انجلترا العياشى بكل ما يحتاجه من آلة الحرب من مدافع
وبارود ، ورصاص وغيره .

هذا وقد أرسل (William Rainsborough) بعد ذلك عدة تقارير من
على ظهر سفينة القيادة (Antilope) عن الأحوال في (سلا) وعن العلاقات
بين العياشى والإنجليز — ففي رسالة له بتاريخ (١٩ مايو ١٦٣٧) يتحدث
عن العلاقات الطيبة بين الإنجليز والعياشى فهم يمدونه بما يحتاجه من بارود ،
ويذكر أن (العياشى) يحاصر الرباط (سلا الجديدة) بـ ٢٠,٠٠٠ من
الحيةالة ، لكن ليست لديه قوة برية كبيرة من المشاة وإنه قد أطلق سراح
الأسرى الإنجليز في (سلا) (٥٨) .

وقد ظلت المشكلة بين الأندلسيين وبين العياشى فترة طويلة — كما
سنشرح فيما بعد — ويبدو أنه لم يتيسر لآى من الفريقين حسم الوضع ،
لكن نشير هنا إلى خطاب القائد البريطانى (رنسبورى) الذى أرسله من على
ظهر سفينة القيادة البريطانية فى مياه سلا إلى قائد (سلا) من قبل العياشى
وهو مؤرخ (١٥ يوليو ١٦٣٧) وفيه يبدى القائد البريطانى أسفه لأن
المحادثات بين العياشى والأندلسيين لم تنته إلى نتيجة بعد — رغم طول فترة
المحادثات ويعمل ذلك بأنه يبدو أن الأندلسيين يبهنون كسب الوقت حتى
يرحل الأسطول الانجليزى الذى يساند قوات العياشى — وهو يعرض
أن يرسل مندوباً للعياشى ليعرف انجاهااته واحتياجاته ويطلب من قائد
(سلا) ألا يطلق سراح أفراد السفينة التى أسروها للأعداء إلا بعد أن
يطلقوا هم سراح عدد مماثل من الإنجليز الذين فى أسرهم (٥٩) .

هذا على أننا نشير إلى أن علاقة الانجليز بالعباشي ظلت قائمة وقوية طالما كان العباشي صاحب النفوذ في المناطق الهامة الممتدة من (الرباط) إلى (تطوان) وما عداها من الثغور التي كان يهتم انجلترا تأمين مصالح رعاياها فيها - هذا بالإضافة إلى سعي الانجليز لكسب ود أصحاب السلطة من ملوك السعديين - لكن حين أنقلب الود والصفاء بين الدلائين والعباشي كما سنشرح وانتهى الأمر بقتل العباشي في ٩ محرم ١٠٥١ (١٢ أبريل ١٦٤١) لم يتأخر الانجليز عن الاتصال بزعم الدلائين (محمد الحاج) الابن الأكبر للشيخ (محمد بن أبي بكر الدلائ) وعقدوا معه معاهدة صداقة شبيهة بمعاهداتهم مع العباشي (١٠) .

وهكذا اتسمت السياسة الانجليزية - كما ذكرنا - بالمرونة والمراوغة على أن هذه السياسة الملتوية والمتناقضة أغضبت الملوك السعديين بمراكش ، كما أغضبت الدلائين الذين امتد نفوذهم إلى الثغور الواقعة شمال أم الربيع .

وكانت انجلترا تضطر من وقت لآخر لإرسال مندوبيها لمحاولة علاج الموقف وبحث وسائل تحقيق مصالح الرعايا الانجليز وبالطبع كانت انجلترا تعتمد في الوصول إلى أهدافها على قوة أسطولها قبل كل شيء .

خامساً - علاقة العباشي بالدلائين - ونهاية حياته :

تعرف العباشي لأول مرة على محمد بن أبي بكر الدلائ - كما يغلب على الظن - في مدينة سلا ، عند شيخهما (الشيخ عبد الله بن حسون) فتوطدت عرى الصداقة والمحبة بين الرجلين وظلا يذكران طول حياتهما صفاء المنبع الصوفي الفياض الذي كرعا منه معاً (٦١) على أن ما تؤكد المصادر - هو أن العباشي كان يثق في صديقه الدلائ ويعتز برأيه ويسترشد به في شتى المشاكل ، ولذا كان ينسب صديقه بما يعتزم القيام به من حركات الجهاد بل ويطلعه على خططه الحربية .

لحين تكشف بعض القبائل من (أولاد سكير) و (شرافة) - بيعته واعزم قتلها - بعث إلى صديقه (محمد بن أبي بكر) الدلائى ينبئه بما اعتزم القيام به ، فرد عليه مستنكراً مسلئ هذه القبائل التى تنكرت له بدلا من أن تقوم بواجب شكر الله على النعمة التى أسداها إليهم وأسبغها عليهم - وهى كما يقول له - ذاتكم التى نابت عن الأمة المحبوبة فى أداء هذا الغرض . . ألم يعلموا أن الله تعالى لهم محاسب وسائل وأن اتباعك والإذعان لحججك وإجابة دعوتك هو لهم عند الله من أرجح المقربات وأعظم الوسائل . . مادعوت إلا الله ولا مضيت يومك وامسك إلا فيما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ما كنت أظن أنهم يملكون منك أرضاً ولا جداراً . . فإن لم يرجعوا الطريق الرشدا فاعرض عنهم . . وإن كانوا أوفر من حصى البطحاء وأكثر من رمل الدهاء فآله وليك وناصرك (٦٢) .

وكتب محمد بن أبي بكر الدلائى يحض شيوخ القبائل ورؤسائها على الانصياع للعباشى - وجاء فى رسالته بهذا الشأن: د والله لو كان فى ملة النصرارى من يفعل فى المسلمين كفعله هو فى النصرارى للملكوه رقابهم وأولادهم وولوه أمورهم وحكموه فيها (٦٣) .

وحين علم محمد بن أبي بكر الدلائى - بأخبار انتصارات العباشى على المستعمرين فى العرائش وغيرها بعث إليه يمنته بهذا النصر ، ويعلن فرحه وسروره بالنصر الذى مكن الله به على المسلمين ورد عليه العباشى شاكرأ ويخبره بعزمه على غزو (المعمورة) ويلتمس منه الدعاء بالإغاثة على ما هو بصدد - وجاء فى الخطاب :

« هذا وقد ورد علينا كتابكم المعظم - أثير المحل لدينا كريم الورد علينا مهنئاً بغزوة العرائش أعادها الله داراً للإسلام ومتضمناً سروركم بذلك وبما كتبه الله تعالى . . وقد قوى الأمل فى الله سبحانه وتعالى أن تكون تلك الغزوة

مفتاحاً لفتحها .. فالمسلمون نازلون الآن بعقر دارها ويرسلون الصواعق
على أسوارها حتى تفرق إن شاء الله بكفارها - وبإذن الله عز وجل يبوارها -
ويطهرها من أدرانها .. هذا الذي انعقدت عليه النية . لكن ياسيدي أين
المساعد والأمر لا ينهض به الواحد ، والمسلمون - جبر الله صدعهم - لا يتفق
لهم رأى .. حتى أن افتراق كلمتهم أضمر على الإسلام من اجتماع عدوه ،
وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه (٦٤) ..

وظلت العلاقات على هذا المنوال وكان العياشى يهدى إلى الدلائن بعد
انتصاره فى المعارك الحاسمة جزء من الغنائم - فى عام (١٠٤٣هـ - ١٩٣٣م)
أرسل لمحمد بن أبى بكر هدية عظيمة مع ابنه (عبدالله) وقد اشتملت الهدية
على أنواع من اللف والسكتان وغيرهما من الثياب الرقيقة الغالية الثمن حتى
أن الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى تعجب من تلك النفائس التى امتلأت بها
صناديق عديدة ورأى فى استعمالها ترفاً لا يليق بصوفى زاهد مثله فوزعها كلها
على الشرفاء والضعفاء والطلبة المقيمين بالزاوية الدلائية ، ولم يحتفظ منها لنفسه
ولا لأهله بشئ (٦٥) .

وكانت نظرة الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى للعياشى - كما تستشف من
خطاباته التى أوردنا بعض ما جاء فيها من قبل - على أنه مجاهد يقوم بعمل دبنى
ووطنى - وظل الأمر كذلك حتى وفاة (محمد بن أبى بكر) فى عام (١٠٤٩هـ -
١٩٣٩م) فتولى الأمر بعده ابنه الأكبر (محمد الحاج) ، وظل العياشى على
اتصال به كما كان مع والده حتى أنه حين استغاث أهل فاس بالعياشى من
جيرانهم (الحبانية) و (شراقة) الذين دابوا على الإغارة عليهم - فما كان من
(محمد الحاج) إلا أن بعث معهم جيشاً عظيماً من قبائل البربر ليستعين به العياشى
على قتال (الحبانية) ومن معهم من (شراقة) (٦٦) .

هذا على أن العلاقات بين العياشى و (محمد الحاج) الدلائى - لم تستمر على

هذا المنوال من الصفاء والتماون - فلم تلبث أن انقلبت الصداقة إلى عداوة وانتهت بحرب طاحنة بين الطرفين .

والمتنبع لتطور العلاقات بين الطرفين تعتريه الدهشة من هذا التطور العجيب ففي رسالة لمحمد الحاج إلى العياشي يذكر له :

« أن السعديين أبناء الأجلة الأسلاف الذين هم ملوك المغرب وخلفاؤه .. أرسلوا إلينا كتاباً فصحوا فيه بأنك جرت عليهم . وعلى من هو تحت طاعتهم ، وغلبت على القبائل المجاورين لك ، وعزمت على استئصال شأفتهم وأنك تزعم أنك تريد الجهاد وليس قصدك إلا جمع الأموال ، وتملك البلاد ، واستعباد العباد ، وطلبوا منا إغايتهم على قتالك ، وساعدتهم على حربك ونزالك .. فقدمنا إليك التشفع بربك فيقل أن نبعث من يقوم بحربك دونهم من الأحفاد ويكفيهم الله ما بذلهم من شرك وصدك ، ونصبحك بجنود لا قبل بها لك ولا لغيرك والسلام ... (٦٧) .

على أن حادثة (الأندلسيين) ، كانت في الحقيقة - كما يقول المثل - القشة التي قسمت ظهر البعير فيما يتعلق بالعلاقات بين الطرفين - فقد اتهم العياشي الأندلسيين المقيمين على الضفة اليسرى لنهر (أب رقراق) بممالة الأسبانيين على المجاهدين .

وكان ذلك - كما يذكر الحادي أثناء (غزوة الخلق الكبير) فقد كان أهل الأندلس هؤلاء - قد كرهوا سيدي محمد العياشي - لعرض غير لائق اقتصروه عليه فلم يوافقهم عليه فبغضوه لذلك وتحزبوا عليه ، فهادنوا النصارى أثناء (محاصرة الخلق) ، وأمدوهم بالطعام والشراب ، وتصرفوا في بيت مال المسلمين ، ومنوهم من الرواتب منه ، وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم - فبلغ ذلك سيدي العياشي - فلما تحقق لديه الأمر أقام عليهم الحجة وشاور العلماء في قتالهم ، فافق أغلبهم بإباحة قتالهم .

وقد اتقى سيدى محمد المقرئ (الفاسى) بجواز قتالهم لأنهم حاربوا
الله ورسوله ووالوا الكفار .

وكان الإمام (أبو محمد سيدى عبد الواحد بن عاثر الأنصارى) — قد
توقف عن الجواب فى ذلك الأمر — فلم يدل فيه برأى — إلى أن رأى بعينه
أهل الأندلس بسلا يحملون الطعام للكمار ويعلمونهم بمعورة المسلمين فحكم
بقتالهم — فحكم العياشى فى رقايم السيف أيا ما وحاصرهم وضيق عليهم فقتل
من وجده منهم — فذهبت طائفة منهم إلى النصارى ، وذهبت طائفة أخرى
إلى الجزائر ومنهم من ذهب إلى مراکش ، وذهبت طائفة إلى (الزاوية
الدلائية) تستنجد بأصحابها ورجع من نفي منهم إلى اجتماع الكلمة والتوبة
إلى الله (٦٨) .

وأرسل (محمد الحاج) يستشفع عنده فى أهل الأندلس الذين
استجاروا به ، فأبى أن يقبل فيهم شفاعته ، وأصر على استئصال شأفتهم .
فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على عداوته
ومقاتلته .

ولعل املاق فى وصفه للوضع الذى آلت إليه الأمور تعبير عن الحالة
فيذكره أن أهل الدلاء حنقوا عليه — فعمطت منهم له العداوة ، وسلبت
منهم فى جانب المعصورة ، وصاروا يرمونه بماليس فيه ، ويسمونهم باسم
(الجاهل السفية) ... وصانعوا صاحب مراکش فى رسائلهم إليه ، وبالقوافى
زخرف قولهم بذهمه وإهاتته (أى ذم وإهانة العياشى طرف صاحب
مراكش) ... والله سبحانه وتعالى واقية من كيدهم ومنجيهم من سوء ما بدا له
من عندهم ، (٩٦) .

وقد أعد (محمد الحاج) الدلائى العدة لمهاجمة (العياشى) فى المناطق التى

ييسط نفوذه عليها للقضاء على سلطانه بها - فزحف بجيوش كثيرة من
عرب وبربر في أوائل عام (١٠٥٠ هـ - ١٦٤٠ م) وملك مدينة (مكناس)
ثم اتجه إلى (فاس) وحاصرها فهب العياشي لمواجهة ووقعت الحرب بين
الصدّيقين القديمين ، واستطاع العياشي أن يوجه ضربات قوية لجيش
الدلائين - فأضطروهم لرفع الحصار عن المدينة - ولجأ الدلائيون إلى حيلة
أبث الفرفة بين أنصار العياشي حتى تضعف قوته - وبمكثهم الإيقاع به
فجذبوا إليهم بعض رؤساء القبائل التي كانت تناصر العياشي من (الكوارده
والتاغى) و (الدخسيس) و (الخلط) وطائفة من الأعراب ، وانهز
فرصة لإنشغال العياشي بقتال الأسبان في (طنجة) فجمع حشوداً كبيرة من
العرب والبربر شمال نهر (سبو) لتعرض طريقه في أثناء عودته من قتال
الأسبان ... وفوجيء العياشي بهذا الجيش الجرار يعترض طريقه وحاول
أن يتجنبهم ويفض الطرف عنهم - خاصة أنه كان عائداً منهكاً من معاركه
مع الأسبان - لكن أتباعه أبو إلا أن يتصدوا لمقاتلة أعدائهم فاضطر
لمجاراتهم فوقعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين في ضواحي (سوق
أربعاء الغرب) في (أواخر ذى القعدة عام ١٠٥٠ - ١٦٤١) - وقتل
فرس العياشي تحته في هذه المعركة ، فليجأ هو إلى قبيلة (الخلط) ولم يكن
يعلم أنهم انحازوا إلى أعدائه - فأغتالوه في (عين القصب) التي تقع على
بعد ٢٠ كيلو متراً غرب (سوق أربعاء الغرب) وكان ذلك في (١٩ محرم
١٠٥١ - ٢١ أبريل ١٦٤١) - وبموت العياشي تفرق أنصاره وخلا الجو
للدلائين فاستولوا على (فاس) و (سلا) و (تطوان) وباقى بلاد المغرب
التي كانت تدين بالولاء للعياشي .

وقد كانت وفاة هذا البطل المجاهد في هذا الوقت بالذات خسارة فادحة
فرثاء عدد كبير بقصائد مؤثرة ، وفي الوقت الذي نظر المسلمون المخلصون

إلى فقد هذا المجاهد على أنه خسارة فادحة ألت بالإسلام والمسلمين فقد
إبتهج المستعمرون لزوال هذا الكابوس الذي كان يجم على صدورهم .

فقد ذكر - صاحب نزهة الحادى - أن رجلاً مغربياً بالمدينة المنورة
صور الإسلام بعد فقدته برجل قد قطعت يده - بينما أقام المستعمرون
(الافراح) لمدة ثلاثة أيام حين بلغهم خبر مقتله تعبيراً عن إبتهاجمهم
بذلك (٧٠) .

هكذا انتهت هذه الشخصية التى لعبت دوراً حاسماً فى تاريخ الكفاح
الوطنى ضد الاستعمار الأوروبى فى المغرب الغربى فى النصف الأول من
القرن السابع عشر .

ولاشك فى أن إنتهاء حياة هذا البطل بهذه الطريقة المؤسفة يثير الكثير
من التساؤلات ولعل السؤال الأول الذى يلح أكثر من غيره هو ... هل
حادثة الأندلسيين التى اتخذها (محمد الحاج) واتباعه من الدلائن ذريعة
لمحاربة هذا المجاهد والتخلص منه - هى السبب الحقيقى لهذا السلوك الغريب
من الدلائن تجاه رجل كان لعمد قريب من أقرب المقربين إليهم ؟

ويصعب على الباحث أن يجيب على هذا السؤال بالإيجاب أو النفي
لكن لا يستطيع الإنسان أن يستبعد أن قضية الموريسكيين قد تكون ذريعة
اتخذت ليحقق (محمد الحاج) أطماعاً جاشت فى نفسه ، ولتبرير هذا العمل
أمام المواطنين واتباع محمد الحاج الدلائن نفسه فقد كان (محمد الحاج) قد
ثبت أقدامه فى (ملوية العليا) (وتادلا) وغيرهما من البلاد - ولا بد أن
أنظاره اتجهت نحو الغرب وكان العياشى ونفوذه يمثل العقبة الكؤود فى
هذا الاتجاه - كما لا نستبعد أن نفوذ العياشى وما وصل إليه من حب الجماهير
وتكلمها حوله - قد أثار روح الغيرة عند (محمد الحاج) الشاب الذى ورث

مر بن أبيه الديني لـكنه لم يكن قد وصل بعد إلى ما كان عليه أبوه من خبرة
وحكمة وروية يتميز بها الشيوخ عن الشباب ، ولعل استنكاره لعدم قبول
العباشي لشفاعته اللاندلسيين واعتبار ذلك كبيرة من الكبار يدل على روح
الغرور هذه .

وهناك سؤال آخر يتعلق بموقف العباشي نفسه من اللاندلسيين فهل
كانت المصلحة الوطنية والحكمة تقضيان أن يصل الأمر إلى حد قتالهم في
هذا الوقت الذي كان العدو يحتل فيه الثغور المغربية بينما كانت الأوضاع
الداخلية مضطربة كما رأينا والسلطات الحاكمة عاجزة عن مدافعة الطامعين
في ثغور البلاد وثروتها ؟

هذا وقد كان الموريسكيون يمثلون قوة كبيرة في (نطوان) و (الرباط)
و (سلا) ولاشك في أنهم كانوا يجنحون لأن تكون لهم سلطات مستقلة في
هذه الأماكن وقد قدموا للعباشي مساعدات قيمة فقد أمدوه بالرمات والبارود
و (الانفاط) في جهاده لاعداء البلاد (٧١) .

لكن العباشي كان يطمع في إدماجهم وإخضاعهم لسلطانه نهائياً فاصطدم
برغبتهم في أن تكون لهم شخصيتهم المستقلة المتميزة ... ولعلهم في سبيل
تحقيق هذه الغاية ذهبوا مذاهب شتى — فارتبطوا فترة بملك مراکش —
لـكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الولاء وقطعوا صلتهم ببلاط مراکش
وأقاموا عنهم عاملاً اختاروه بأنفسهم وجعلوه مسؤولاً أمام مجلس مختار ،
وذهبوا — كما اتهمهم العباشي وغيره من المعاصرين — إلى أنهم مدوا
أيديهم إلى الأسبان وأنصلوا بحامية (المعمورة) وأمدوها بالذخيرة والطعام
في الوقت الذي كان العباشي يهاجم فيه هذه الحامية ويضيق عليها الخناق —
وكان هذا هو السبب في استباحة العباشي لقتالهم .

لكن مع كل ذلك فلعل المصلحة الوطنية كانت تتطلب ألا يصل العياشي
في موقفه منهم إلى قتالهم في وقت كان يستلزم تركيز الجهد ضد العدو
المستعمر — خاصة أنه كان يمكنه استمالتهم والاستفادة منهم في هذا الميدان —
وقد سبق أن أسهموا فيه بنصيب، خاصة أنهم بلغوهم للدلائين ليتوسطوا لهم
لديه — دلوا على استعدادهم للرجوع للصواب .

ومهما يكن من أمر فإن أبا عبد الله محمد بن أحمد الزياني العياشي يمثل
صفحة من صفحات الكفاح الوطني في المغرب العربي ضد الاستعمار
الأجنبي ...

وهي صفحات ما أجدرها أن نلقى عليها الأضواء .

ملحق البحث

نورد هنا بعض نماذج من المصادر الأصلية التي تناولت الحديث عن العياشي :

أولاً: الجواهر المختارة فيما وقعت عليه من النوازل بجمال غمارة لعبد العزيز ابن أبي الحسن بن يوسف المهدي الزبائي (١٠٥٥هـ - ١٦٤٦) .

ص ٢٢٩ نوازل الجهاد .

٢٢٣ - ٢٩٤ وجوب الجهاد قاصر على وجود الإمام .

(نسخة خطية في وثائق الرباط تحت رقم ١٦٩٨ / د) . جزءان :

الأول : صفحاته ٣٦٤

الثاني : صفحاته ٣١٨

بنخط مغربي وسط ورد ذكره في ملحق بروكلمان ج ٢ ص ٦٩٤

ثانياً : نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي (عشر) .

لابن عبدالله محمد الصغير بن عبدالله بن علي الأفراني المراكشي (ينتهي في ٢٥ محرم ١١٣٩هـ) .

ص : ١٠٤ - فيها تعريف بالعياشي وذكر بعض مناقبه .

١٠٩ الخبر عن قتله ، وكيف وقع ذلك وسببه .

١١٠ رثاء الشعراء له وقصيدة الأديب البليغ (أبو العباس سيدي

محمد المرغوني) .

(نسخة خطية في وثائق الرباط تحت رقم ٤/د ، ١١٧/د ، ٧٠/د)

ونسخة على المطبعة الحجرية ، وأخرى بترجمة فرنسية ماحقة بها .

وهو يشمل تاريخ المغرب خلال القرن (الحادى عشر الهجرى - السابع عشر الميلادى)

والمؤلف عالم من أسرة معروفة بمراكش ولد حوالى (١٠٨٠ هـ) ،
وارتحل لأماس حيث أخذ العلم على كثير من علماءها - وله عدة كتب فى
التفسير ، وقد انتهى من كتابه هذا الذى تناول فيه تاريخ فترة هامة من حكم
السعديين - (١١٣٩ هـ)

- والنسخة الفرنسية نشرها (هوراس) مع فهرس للإعلام ، وفهرس
عام تحت عنوان :

" Nozhet el Hadi; Histoire de la Dynastie Saadinne au Moroc
(Paris 1889).

ثالثاً : البدور الضارية فى التعريف بالاسادات أهل الزاوية الدلائية

لسليمان بن محمد بن عبد الله بن على العللى الشفشاونى (١٢٣٦ هـ)

ص ١٨٨ ، ١٢٩ - تهنئة محمد بن أبى بكر الدلائى للعباشى بـ - زوة
العرائش .

ص ١٠٥ وفاة محمد الحاج الدلائى وتولىه ابنه عبد الله الذى تلقبه المصادر
الأوربية (بأمير سلا)

ص ٢١٦ الصفحة الأخيرة من الكتاب - ذكر بها سنة الانتهاء منه .

وإد المؤلف فى صهوان فى جنوب تطوان حوالى (١١٦٠ - ١٧٤١ م)
وبات فى (١٩ صفر ١٢٣٢ - يناير ١٨١٦) - والكتاب تاريخ مطول
لكل العائلة الدلائية والأحداث المرتبطة بها فهو يتحدث فى بعض صفحاته
عن التاريخ السياسى للزاوية .

رابعاً : الخبر عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه
بوظيفة الجهاد لعبدالقاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن ، إملاق .

وقد أخذ الكتاب الكثير عن نزعة الحادى ، وكذلك عن الدور الضاربة
مع بعض الإضافات .

وقد مات المؤلف فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى ورقم
النسخة فى وثائق الرباط ٩١/د .

وقد وجدت نسخة أخرى خطية أيضاً فى فاس انتهى منها كاتبها فى •
صفر ١٣٠٦ - ١١ أكتوبر ١٨٨٨

خامساً : المعاهدة المفقودة بين سيدى محمد العياشى ، وشارل الاول
ملك انجلترا (نقلا عن النسخة الاصلية المحفوظة فى أرشف ملبورن) .

سادساً : رسم تخطيطى لسلا ١٦٣٧ نقلا عن كتاب :

Jahe Dunton : A True Journall of the Sally Fleet With the
proceedings of the voyage. (Published by John Dunton, London
Mariner master, of the admicall Called — the Leopard — London
1657).

(British Museum Printed Books — Press Mark E 1943112).

وبمحتوى الكتاب وصفاً كاملاً المدن الثلاث - (الرباط) و (القصبه) ،
و (سلا) - وقائمة الاسرى الذين كانوا بسلا .

Mohammed El - Aiachi

et sa lutte contre les Espagnols et les Portugais (+ 1641)

El A'iachi, faqih et théologien musulman Marocain, passa sa jeunesse à Salé. fut l'élève de quelques éminents faquihs de son siècle. Il se fit distinguer vers la fin du règne de l'Etat Saadite, durant les premières décennies du XVII^e siècle. Les autorités régnantes au Maroc, à la suite de la fin du règne du Sultan Ahmed El — Mansour, furent faibles et si discordantes qu'elles se trouvèrent incapables de se défendre contre l'ennemi extérieur. D'une part les regards des Espagnols et des Portugais se dirigèrent vers le Maroc, après le succès qu'ils avaient remporté contre les Arabes sur la terre d'Andalousie. D'autre part, le Maroc devait faire face aux ambitions des Turcs qui s'étaient déjà installés en Algérie et en Tunisie.

Les efforts de El - A'iachi se firent remarquer, en premier lieu, dans le domaine de la lutte contre les Portugais près de la ville de (Bréga). Après avoir connu la défaite, sur le champ de bataille, les Portugais eurent recours aux complots pour lui porter préjudice auprès du Sultan ; lequel chercha à d'en débarrasser, mais en vain.

Enfin on compte, El — A'iachi réussit à étendre son pouvoir, de Salé jusqu'à Tetouan.

Après avoir réussi à avoir la mainmise sur ces terrains, il conduisit les Marocains en une campagne vigoureuse contre les Espagnols à l'Arèche " et " El Ma'mourah " et tous les autres ports occupés par eux. Il remporta la victoire dans sa lutte contre les ennemis du pays.

Lorsque les pays d'Europe (et en particulier l'Angleterre) remarquèrent le pouvoir d'El — A'iachi sur les ports Marocains ils contractèrent avec lui des traités commerciaux pour sauvegarder leurs économies et pour protéger leurs citoyens.

El — A'iachi ne fut pas seulement un homme de guerre, mais

il fut aussi un réformateur social. Il écrivit plusieurs messages en vue de résoudre maints problèmes sociaux qui se faisaient sentir par sa communauté. Il entretenait de bons rapports avec "N. Ben Abou-Bakre El - Dallai" chef du secte connu par ce nom: ainsi qu'avec son fils. En outre, il avait également de bonnes relations avec les Morisques émigrés: de l'Andalousie à Tétouan, Rabat et Salé.

Toutefois, ces bonnes relations ne durèrent pas longtemps, à la suite d'une mésentente entre les deux parties, ce qui l'obligea à entrer en guerre avec eux.

Mohammed El-Haj El-Délai proposa sa médiation, dans l'espoir que El-A'iahi se réconcilie avec eux, mais sa proposition fut repoussée. Par conséquent (les Dellaines) se retournèrent en guerre avec lui. Il fut attaqué et assassiné le 21/4/1664.

L'étude présentée ci-dessus, expose la vie et la lutte de El-A'iahi, en se basant sur les ressources originelles et contemporaines, ainsi que sur les documents officiels, dont on trouvera plus loin quelques spécimens, en guise d'appendice.

المواشى

(١) انظر :

- الأفرانى المراكشى ، أبو عبد الله محمد الصغير بن عبد الله بن على الأفرانى المراكشى :
 نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى .
 ص ١٠٤ النسخة الخطية / ٢٢٢ النسخة الحجرية .
 (انظر التعريف بالكتاب والمؤلف ، ملحق البحث — مع نماذج منه) .
 (٢) لملاق : عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو لملاق : الخبر عن ظهور
 الفقيه العياشى بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد ص ٢ .
 (٣) انظر التعريف بالكتاب ، فى ملحق البحث — مع نماذج منه .
 (٤) نزهة الحادى : المرجع السابق — النسخة الخطية ص ١٠٤ رفها ٤١٠ بوثائق
 الرباط وهى التى سنفشى باستمرار لصفحاتها .
 (٥) ينزخ الأرشيف الأسباني بعدد كبير من الرسائل التى تؤيد هذا الاتجاه ،
 فكثيراً ما لجأ المتنازعون إما إلى الأسبان) أو إلى العثمانيين فى (الجزائر) لطلب
 العون والمساندة .
 انظر :

Archive General de Gimancas Estade Legajo 477.

- (٦) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعيدية الدرعية التا كادرتية (نشره جورج
 كولان فى الرباط ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م) . ويرجح أن المؤلف عاصر هذه الأحداث
 وأنه عبر عنها خير تعبير ، لكنه حرص على ألا يذكر اسمه خشية أن يبطش به أصحاب
 السلطان ممن يعينهم الأمر .

Prescott : History of the Reign of Ferdinand and (٧)

Isabella (1890) p. 467.

- (٨) ملاحظة : كان لفظ (سلا) يطلق على (الرباط) ، (القصبة) و (سلا)
 — قبل مجىء الأندلسيين ، لكن بعد ذلك استرجعت (الرباط) اسمها الموحدى ، ويطلق
 على القصبة اليوم (قصبة الودايا) نسبة إلى جيش (الودايا) الذى سكنها أيام السلطان
 عبد الرحمن بن هشام العلوى — أما (سلا) اليوم فهى ضاحية الرباط .
 انظر : محمد حجي : الزاوية الدلائية (١٩٦٤) ص ١٧٠ .

- (٩) أحمد المقرئ : فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين
 ابن الخطيب ج ٢ ص : ٦١٧ (المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٤ هـ) — والكتاب فى أربعة
 أجزاء — فرغ المقرئ منه بالقاهرة فى شهر رمضان (١٠٣٨ هـ — ١٦٢٨ م) .
 وسنرى أن الموريكبيين سيلعبون دوراً هاماً وخطيراً فى الأحداث المرتبطة بالعياشى .
 (١٠) الباستيون — لفظة أسبانية معناها القلعة ، وكان هذا الحصن واقعاً خارج
 باب البحر حيث السفارة الفرنسية الآن (فى مبدأ شارع الرئيس الحبيب بورقيبة) .

- (١١) خطاب (Giovanni Battista Gesia) موجود في :
British Museum - Additional Mss 28359 f. 25.
- (١٢) فيشر ، هربرت : أصول التاريخ الأوربي الحديث (ترجمة د. زينب عصمت
واشد ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم —
المعارف بمصر ١٩٧٠) ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
- (١٣) فيشر ، هربرت : المرجع السابق ص ٢٢٩ .
- (١٤) لملاق — مرجع سابق ص ١ .
- ملاحظة : ردد هذه القصة التي تحاك حول بداية جهاد العياشي أكثر من مرجع —
ولا ندرى هل هي حقيقة أم من قبيل ما يثار دائماً حول أعمال المجاهدين والأبطال من
من قصص خيالية تضاف على أعمالهم هالة من الروحانية والتجيد .
- (١٥) نزهة الحادي (مرجع سابق — النسخة الخطية ص : ١١٥) (النسخة الحجرية
ص ٢٢٥) .
- (١٦) نزهة الحادي : المرجع السابق ص ١٠٦ ، النسخة الحجرية ٢٢٦ .
- (١٧) يقع هذا الثغر شمال مدينة سلا على مصب نهر سبيو ، ويطلق عليه أيضاً
لسم (المهدية) .
- (١٨) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية (نشر جورج كولن) ص ١٠٣ .
- (١٩) نزهة الحادي ص ١٠٦ (الخطية) ، ٢٢٦ (الحجرية) .
- (٢٠) لملاق — ص ٥ .
- (٢١) عبد العزيز بن أبي الحسن بن يوسف مهدي الزنقاتي : الجواهر المختارة فيما
وقفت عليه من النوازل بجبال غماره (نسخة خطية بوثائق الرباط تحت رقم ١٦٩٨ / D
ورقة ١٢٥ / ب .
- (٢٢) انظر نص فتوى (محمد العربي الفاسي) بهذا الخصوص في :
الجواهر المختارة — المرجع السابق ورقة ١٢٢ .
- (٢٣) الجواهر المختارة — المرجع السابق ورقة ١٢٦ .
- (٢٤) لملاق ص ٢٦ — ٣٣ .
- (٢٥) لملاق ص ٢٢ — ٢٦ .
- (٢٦) لملاق — مرجع سابق ص ٣ .
- (٢٧) نزهة الحادي — مرجع سابق ص ١٠٧ (النسخة الخطية) ، ٢٢٧
(الحجرية) .
- (٢٨) نزهة الحادي ص ١٠٧ (النسخة الخطية) والنسخة الحجرية / ص ٢٢٧ .
- (٢٩) انظر : سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد علي الصهواني الحسني :
البدور الضارية — مناقب أهل الزاوية رملانية (نسخة خطية بوثائق الرباط برقم
٢٦١ / د) .
- (٣٠) انظر ملحق البحث — توثيقاً بالكتاب وصاحبه) .
- (٣٠) لملاق — مرجع سابق ص ١٣ .

(٣١) نزهة الهادي — مرجع سابق ص ١٠٨ (النسخة الخطية) ، ص ٢٢٨
(النسخة الحجرية) .

(٣٢) نزهة الهادي — ص ١٠٨ (النسخة الخطية) (النسخة الحجرية ص ٢٢٨) .

(٣٣) يوجد بمخطوطات المتحف البريطاني عدد كبير من المذكرات المتعلقة بالعلاقات
البريطانية المغربية في هذه الفترة كتبها عدد من السياسيين والعسكريين نذكر منها مذكرات:
(Antony Shereby—1622), (Henry Mainwaring 1611).

كما يوجد عدد من الكتب المعاصرة نذكر منها :

George Wilkins : Three miseries of Barbary; Plague Famine
and civil Warres (1604) John Dunton : Atrue Journal of the
Sally Fleet (1637).

(٣٤) فشر هيربرت : مرجع سابق ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٣٥) نفس المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٣٦) انظر :

1 -- Richard Hakluyt : Principal Navigations of the English
Nation (Tome II).

2 — The travels and Adventurs of the Shereby brothers.
(British Museum - Printed Books, Press Mark 1198
C. 20).

3 — Memoire De S. Scott sur la Commerce Marocain
(Avril 1638).

4 — Pere Dan : L'Histoire de Barbarie et ses crossaites
(1644).

5 — Reception de l'Ambassadeur D'jouder Ben Abdallah
A Londres : 'British Museum, Printed Books,
Press Mark 1434, 1—2 (1637).

(٣٧) اشتهرت (سلا) بالذات بصناعة السفن ، وبأسطولها البحري ، وترجع
هذه الصناعة فيها الى الملك الوحدى عبد المؤمن بن علي (١١٣٠ — ١١٦٣م) الذي أسس
داراً للصناعة البحرية بسلا — لكن القرصنة البحرية لم تعرف إلا في عهد الرينيين — وقد
أقدم عليها المسيحيون والمسلمون وكانت نظرة المسلمين إليها أنها صورة من صور الجهاد ؛
وانتشرت على وجه الخصوص في مدن طرابلس (المغرب) تونس ، الجزائر ، سلا —
وتطورت في عهد العياشي فأصبح للسلاويين أسطول ضخم للجهاد تساعده وتمونه دار لصناعة
السفن على ضفاف نهر أبي رقراق وكانت هولندة بالذات — أعظم دولة بحرية تزود هذه
الدار بمحاجتها من المواد اللازمة لصناعة السفن . وعمل في هذا الأسطول السلاوي عدد كبير

من الموريسكيين ، وقد أطلق الاوربيون عليهم لفظ قراصنة مسلا :
(Les Corsaires de Salé)

انظر : عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقراصنة (مجلة تطوان) سنة
١٩٥٨ عدد ٣ ، ٤ .

وكذلك :

Roger Coindreau : Les corsaires de Salé (Paris 1948).

(٣٨) أشار كل من الادريسي (١١٥٤ / ٥٤٨) وكذا ليو الأفريقي في كتاب
(وصف أفريقيا) (١٥٢٦) إلى أن كميات ضخمة من السكر تنتج في اقليم (سوس) بالمغرب ،
وأن هذا السكر يتميز عن أنواع السكر الأخرى بجلاوته ، وكان ينتج في معاصر فيمر القصب
بين حجرى المرحى ، ويغلى الناتج — والحقيقة أننا نجعل الطريقة التى كانت تستخدم
بعد ذلك في تنقية السكر الناتج ، هل كان الفحم الحجرى هو العنصر الأساسى فى التنقية
أم لا ؟ — ومعروف أن الكثير من مزارع القصب كانت مملوكة للأمر المغربية الثرية
ويعمل بها مسيحيون من العبيد أو غيرهم . وفى القرن الثانى عشر كان جزء كبير من السكر
الناتج يصدر إلى (فينسيا) والبلاد الأوربية الأخرى ، وكان من أسباب ثراء السعديين .

British Museum, Cotton Mss Nero B. xI, f. 298. (٣٩)

Public Record Office - State Papers Domestic Eliza- (٤٠)
beth vol. Lvii no. 85.

(٤١) انظر رسالة سفير إنجلترا فى البرتغال (Thomas Wilson) بتاريخ ٢٧ يوليو
: ١٥٧٣

British Museum, Harlian Mss 6991, f. 26

وكذلك بخصوص نصوص المعاهدة الموقعة بين إنجلترا والبرتغال :

British Museum, Cotton Mss Nero AI. f. 167.

(٤٢) ترتب على تحول النشاط البحرى إلى طريق (رأس الرجاء الصالح) أن أضعف
شأن الدول المطلة على البحر المتوسط والتي كانت من أهم مراكز الحضارة فى العصور القديمة
والوسطى ، وانتقل ميزان القوى إلى الدول المطلة على المحيط الأطلنطى والبحار المؤدية إليه .
ويعتبر القرن السابع عشر بالذات — قرن هذه الدول المحيطية .

(٤٣) يوجد فى المتحف البريطانى (British Museum---Printed Books) عدد غير قليل من الكتب التى تتعلق بالتجارة مع المغرب ، وينشاط الشركة التجارية
(Barbary Gompany) التى أسست لغرض رعاية مصالح التجار البريطانيين
فى المغرب .

(٤٤) هناك قائمة بالهدايا التى أخذت تتدفق على الملك المغربى بعد الانتصار الساحق
على البرتغال انظر :

British Museum : Cotton Mss, Nero B. I f. 229, 230.

John; Nicholas : The Progtess and Pnblio Procê- (٤٥)
ssions of Queen Elizâ beth (1823) p. 288.

Hakluyt : the Principal Navigation of the English (٤٦)
Nation (Edition 1598—1600) Tom II. p. III.

(٤٧) أرسل جون هاريسون (John Harrison) عدة تقارير مفصلة من المغرب وقد اقترح أن يستولى الانجليز على (المعمورة) ، وعلل اقتراحه هذا بأنها مكان مناسب جداً لاستقرار التجار الانجليز حتى يتموا صفقاتهم التجارية ، وأن المجاهد (العياشي) الذي بسط نفوذه على المنطقة حتى فاس ليس متعمساً كثيراً الاسقيلاء على المعمورة خشية أن تعود تركيا فتستولى عليها ، كذلك هناك احتمالات بوجود معدن الفضة في المنطقة المحيطة بها ، بالإضافة الى إمكانية زراعة الأراضي الداخلية ، كما أن وجود حاكم مسيحي فيها يسهم في نشر المسيحية في المنطقة كلها .

انظر تقريره في :

Public Record Office - State Papers. Foreign - Barbary
States - XII fol. 154—155.

Public Record Office - State Papers; Foreign. (٤٨)
Treaty Papers Barbary States.

Public Record Office - Sate Papers; Foreign Royal (٤٩)
Letters Vol. II No. 66.

Public Record Office - Sate Papers. Foreeign Barba-(٥٠)
ry States Vol. XII. Fol. 129—139.

Public Record Office - State Papers. (٥١)

Foreigu Barbary States Vol. XII fol. 142—143

Public Record Office - Patent Rolls, Gharles 1st (٥٢)
2472 No. 10.

Public Record Office - State Papers. Foreign Royal (٥٣)
Letters vol. II No. 56.

(٥٤) انظر مذكرة الكاتبين (Penne) .

Public Record Office — State Papers Domestic, Charles
1st vol. CCC XXX. VIII No. 51.

Public Record Office—State Papers Domsstie : (٥٥)
charles 1st vol. CCCX. LIV No. 4.

(٥٦) الخطاب غير مؤرخ — ومرفق به خريطة لبناء سلا .

Public Record Office—State Papers Domestic Charles I, vol.
CCC LIV No. 28.

(وانظر ملحق البحث) .

(٥٧) انظر ملحق البحث وكذلك :

Melbourne Hall (Derbyshire) — Coke Papers Lease 41.

Public Record Office State Paperes, Foreign Ba- (٥٨)
rbary State XIII.

Public Record Office — State Papers Foreign (٥٩)
Barhary States XIII.

(٦٠) انظر نص المعاهدة في :

Public Record Office — State Papers Foreign Treaty
Papers I.

(٦١) محمد حجي : الزاوية الزلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي (الرباط

١٩٦٤) ص ١٤٦ .

(٦٢) إملاق — مرجع سابق ص ١٠ .

ونزهة الحادي ص ١٠٥ — الطبعة الحجرية ص ٢٢٣ .

(٦٣) إملاق مرجع سابق ص ١٢ .

(٦٤) نفس المرجع السابق ص ١٧ .

(٦٥) البدور الضاوية ورقة ٤٩ .

(٦٦) إملاق — مرجع سابق ص ٣٥ .

(٦٧) نفس المرجع ص ٣٧ .

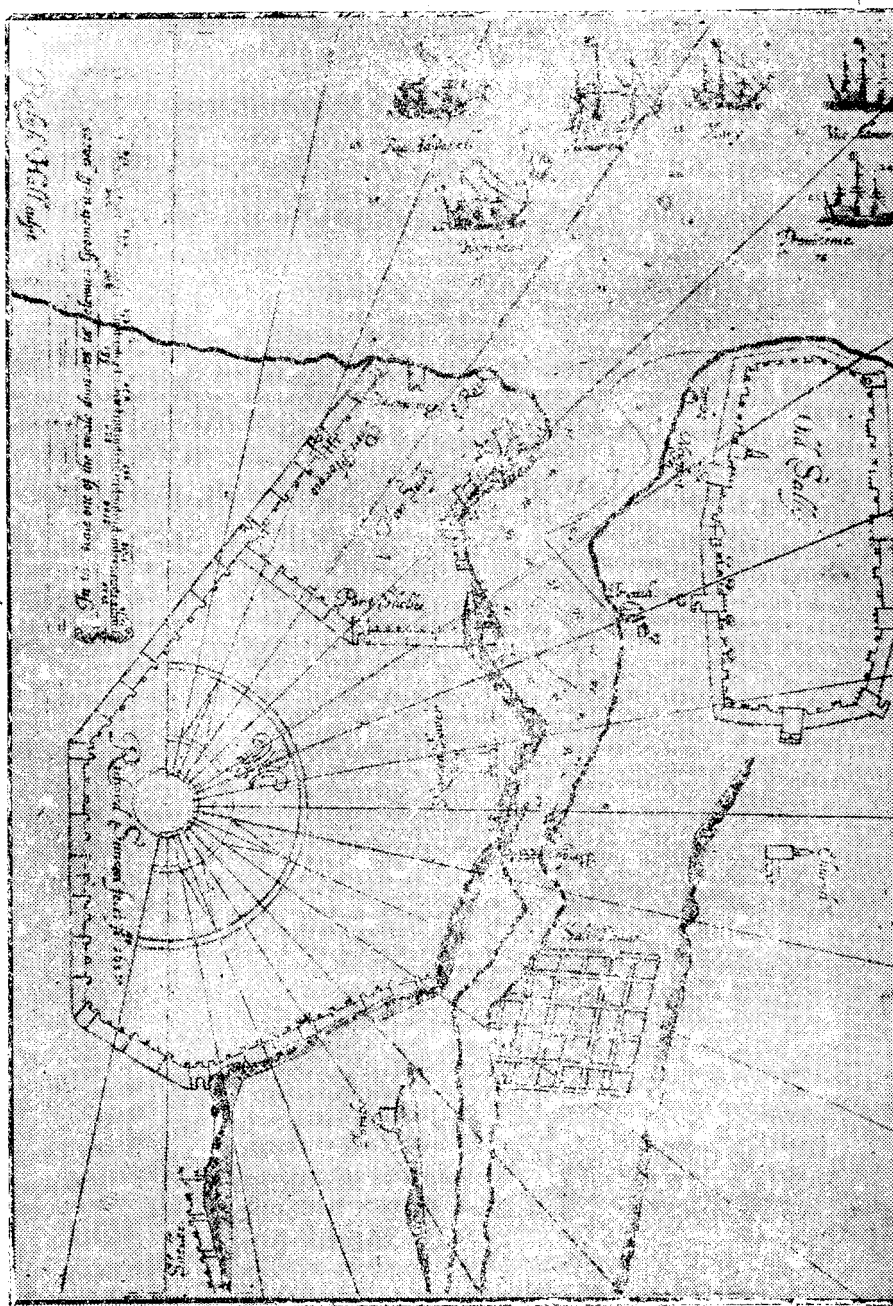
والبدور الضارية ص ٢١٠ .

(٦٨) نزهة الحادي — مرجع سابق ص ١٠٨ ، والنسخة الحجرية ص ٢٢٩ .

(٦٩) إملاق — مرجع سابق ص ٤٢ .

(٧٠) نزهة الحادي ص ١٠٩ ، ١١٠ — والنسخة الحجرية ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٧١) الجواهر المختارة — مرجع سابق ورقة ١٢٥ ب .



SALE 1637

John Dunton : A true Journall of the Sally Heet. P. 343
 (British Museum, Printed Books, Press Mark E 1943/02)

